

روايات مصرية | ٥٢

5

ذات مرة فى الغرب

فانتازيا

د. أحمد خالدة توفيق

مقدمة

اسمها (عبير) ...

لم يكن لها نصيب من اسمها ... فهي تقتدر إلى
الجمال الذي يوحى به الاسم .. إنها سمراء نحيلة
بارزة عظام الوجنتين ، باردة الأطراف .. ترتجف رعباً
من أى شيء وكل شيء ...

إنها حتى غير مثقفة .. ويكل المقاييس المعروفة
لا تصلح كي تكون بطلتنا .. أو بطلة أى شخص سوانا ..
هي لا تلعب التنس ، ولا تعرف السباحة ، ولا تقود
سيارات (الرالى) ، وليست عضواً فى فريق لمكافحة
الجاسوسية ، أو مقاومة التهريب ..

لكن (عبير) - برغم ذلك - تملك أرق روح عرفتها فى
حياتى .. تملك إحساساً بالجمال ورفقاً بالكائنات ..
وتملك مع كل هذا خيالاً يسع المحيط بكل ما فيه ...
لهذا أرى أن (عبير) هى ملكة جمال الأرواح ، إذا
وجد لقب كهذا يوماً ما ..

ولهذا أرى أن (عبير) تستحق مكافأة صغيرة ...
ستكون بطلتنا الدائمة .. وسوف نتعلم معاً كيف
نحبها ونخاف عليها ونرتجف فرحاً إذا ما حلق بها
مكروه

ولأن (عبير) تملك القدرة على الحلم .. ولأنها
تفتزن في مقدمة مخها مئات الحكايات المسلية ، وآلاف
الأحداث التي خلقها إبداع الأبناء عبر العصور ..
لذلك وقع عليها الاختيار كي ترحل إلى (فانتازيا) ..
(فانتازيا) أرض الأحلام التي لا تنتهى ..
(فانتازيا) حيث كل شيء ممكن .. وكل حلم متاح ..
(فانتازيا) جنة عاشقى الخيال
ولسوف ترحل جميعاً مع (عبير) .. ستضع حاجيتنا
وهمونا فى القطار الذاهب إلى (فانتازيا) ..
وهناك سنتعلم كيف نحلم ...
إن صفير القطار يدوى ، والبخار يتصاعد حول قاطرته ..
هو ذا جرم المحطة يدق .. إنن فلتسرع ..!
لقد حان موعدنا مع الأحلام فى (فانتازيا) ..



١ - صحارى أو كلاهما ..

لأنها تنتمى إلى هناك !

هذا هو السبب الوحيد - فيما أرى - الذى يجعل
(شريف) يخضع بهذه البساطة لرغبة (عبير) العارمة
فى العودة إلى (فانتازيا) ..

لأنها تنتمى إلى هناك !..

ليس (شريف) ضعيف الشخصية .. وليس أحمق ..
لهذا أرجح أن هذا هو السبب الوحيد الذى جعله يقبل ..
إنها تنتمى إلى هناك !..

ربما قلنا : إن الاكتئاب داهمها بعد فراق الجوال ..
ربما قلنا إن رتابة الحياة الزوجية تضايقها أحياناً ..
ربما قلنا إنها خيالية واهنة فى مواجهة الواقع ..
لا يهم .. فكل هذه كلمات .. وما أسهل الكلام .. أما
الحقائق فنقول بكل وضوح :
إنها تنتمى إلى هناك !

★ ★ ★

من جديد تقف (عبير) فوق الهضبة ترمى
(فانتازيا) تمكث أمامها إلى ما لا نهاية ..

جاء (المرشد) فى رفق من ورائها .. عرفت قدومه
 من صوت الـ (تنك - تنك) المميز للقلع الذى يحمله ..
 قال لها وهو يضع يده فى جيبه :
 - « مرحباً بك يا (أليس) ! »
 - « (أليس) ؟ »
 - « طبعاً .. (أليس) فى بلاد العجائب .. أنت أقرب
 ما يكون إلى شخصيتها .. ألا ترين ذلك ؟ .. أنت ضيفتنا
 فى أرض (أبداً - أبداً) كما يقول الإنجليز (*) .. »
 - « فليكن اسمها (أبداً - أبداً) أو (هريدى) ..
 لا يهم .. المهم أننى أحبها هكذا .. »
 - « لم تتأخرى كثيراً فى العودة .. ألم أقل لك : إن
 زيارتك ستزداد بعد الزواج ؟ »
 أزاحت شعرها إلى جانب .. وهمست :
 - « بلى .. قلت لى .. لكنى - أقسم - لست تعيسة أبداً
 فى زواجى .. إن (شريف) ملاك حقيقى ، ولم أكن
 لأحلم بمثله خاصة فى ظروفى .. أنا التى لا أملك شيئاً
 ولا أتمتع بأية موهبة .. »

(*) Never-never land

داعب القلم وثبت عينيه فى عينيه :

- « ولكن ... ؟ »

- « ولكن لا أجد طعم (لقاتازيا) الساحر فى أى شىء .. ثم إن (شريف) صار أكثر انشغالا .. وأنا أحتل فى عالمه مكانا صغيرا جدا جوار عالم (الكمبيوتر) ، وعالم الإلكترونيات .. »

- « تك تك ! »

وابتسم فى خبث .. وأردف :

- « خذى الحذر .. فلربما كان يراقب حديثنا هذا

الآن على شاشة (الكمبيوتر) الخاص به ! »

- « ليتَه يفعل .. »

قال لها وهو يرمى الوادى البعيد :

- « هل ترغبين فى زيارة عقلك الباطن ؟ .. إن له

مكائنا هنا .. لكنى أحذرك من أنك لن تحبى كل ما ترى

هناك .. إن هذا المكان يحوى أبشع أحقادك ورغباتك

وكل ما فشلت فيه ، وكل ما تخشين .. ، يقولون إن

ألفظ الوحوش هى نحن .. وأسوأ اللحظات هى حين

تلقين نفسك دون ستار .. »

تنهت وقالت فى ملل :

- « كان هذا ينقصنى !.. لا وحياتك .. دعنى أجهل
عن نفسى كل ما لا أرغب فى معرفته .. »
- إذن هلمى نركب قطار الأحلام .. »

★ ★ ★

مرّ القطار جوار قلعة (دراكيولا) والبرق يضربها ..
فتتبدى معالمها المربعة لثوان .. ثم يعود الظلام ..
تنهت (عبير) إذ تذكرت رحلتها المروعة داخل
هذه القلعة .. ومع البارون (هلسنج) ..

سألت (المرشد) فى سرود :
- « هل أستطيع أن أعود لذات المكان مرة أخرى ؟ »
واصل ضغط القلم .. وغمغم :

- « سؤال غريب .. بالطبع تستطيعين .. لكن هل
أنت حقاً فى ذلك رغبة ؟ .. نحن لم نر واحداً فى الألف
من (فاتتازيا) بعد .. فلماذا تضيعين وقتك ؟ »
- « لا شئ .. كنت أتسائل فحسب .. »

كانت تحلم بالعودة لتموت مع الجوّال .. أو تخوض
مغامرة أخرى مع (٠٠٧) .. أو تعرض مشكلة أخرى
على (هولمز) ..

لكنها لم تتسن بعد ما قاله لها (المرشد) : إن
(فاتتازيا) تتبدل باستمرار .. وليس حتمياً أن تجد
القصص حيث تركتها ..

كان هذا حين رأت واديا متراميا تحرق الشمس
أرضه المتشققة .. نباتات الصبار في كل صوب ..
وأشودة الوحشة تتردد دون كلل ..

- « أين نحن يا (مرشد) ؟ »

- « هذه صحراء في الغرب الأمريكى .. إنه عالم

قصص (ألستر) .. هل قرأت شيئا منها ؟ »

- « ليس تماما .. إن (فانتازيا) تحوى خبرات

كثيرة استمدتها من جهاز (التلفزيون) أو السينما »

- « إن الخيال هو الخيال .. لكن السينما تسلبك نعمة

(التخيل) وهى المتعة الكبرى التى تهيك إياها القراءة »

قالت وهى تشفق لتتخلص من الشعور بالحرارة :

- « هذا صحيح .. إن السينما تضع خيالاتى فى قالب

معد مسبقا قد لا يروقنى كثيرا .. ولكم من مرة رأيت

فيلما عن رواية شهيرة ثم زلزلنى الشعور بأن (الأمور

لم تكن هكذا فى خيالى) ..

ثم نظرت خارج القطار وفتفت :

- « دعنا نجرب هذا العالم أيها (المرشد) .. »

- « إن أحلامك حقائق يا (أليس) .. »

- « (عبير) ! »

- « يا (عبير) ! »

وجذب الحبل ؛ ليوقف القطار .

ساعدتها على النزول .. وكانت هناك جمجمة لثور برى
فوق الرمال تحاشتها (عبير) .. ونظرت إلى الأفق :
- « هل سيحدث شيء ما ؟ »

قال لها وهو يبتسم كأنما يخاطب طفلاً :
- « طبعاً .. ليس من مصلحة أحد شيك حية فى هذا
الجحيم .. لو أنك هلكت ستزول (فانتازيا) من
الوجود .. وسأجد نفسى دون عمل .. »
لم تضحك .. وسألته بصيغة رسمية :
- « من أنا هذه المرة ؟ »

تأملها فى اهتمام .. ثم غمغم :
- « لنر .. إن ملامحك لا تصلح لتكونى مهاجرة
أمريكية من الشرق .. أو خادمة صينية .. إذن ستكونين
(صخرة الماء) .. لك أصل هندى وأب أمريكى .. »
- « (صخرة الماء ؟) » - ومطت شفيتها مفكرة -
« لا بأس به .. فيه شاعرية فظة .. كانت أسمى تدللتنى
أحياناً بـ (طوبة) .. لكن ذلك كان فى أوقات الرضا
بشكل خاص .. »

- « من يدري .. ؟ .. لعل (صخرة الماء) تكرر
للأسم ذاته من عقلك الباطن .. »

وحين نظرت (عبير) إلى قدميها ؛ عرفت أنها
 ترتدى حذاء من جلد الجاموس .. وثوباً طويلاً من ذات
 الجلد .. وعرفت أن هناك ضفيريّتين جميلتين على
 كتفيها .. وخنجرًا في نطاقها .. كما عرفت أن ساعديها
 امتلأ بالحلّى والأساور ..
 أما آخر ما عرفتّه ، فهو أن (المرشد) رحل
 كالعادة ..

* * *

٢ - إضوان الدم ..

الشمس تتحدر غربا ، وقد بلغ حجم قرصها حداً غير معقول .. حمراء ينون الدم تخفضب الزمال بدمائها ..
لقد وجدت (أمريكا) لأن بعض سكان الشرق صمموا على أن يطاروا هذا القرص الأحمر في رحلته المحسومة نحو الغرب .. وأن ينحقوا به قبل أن يذوب للأبد في مياه المحيط المرمدية ..

★ ★ ★

في ضوء الغروب الأرجواني تتقدم ستة أفراس في تودة .. يقطع عليها الطريق فرس سابع ..
و (عبير) لا ترى وجود الراكبين - لكنها - بوضوح - ترى ظلالهم .. وتعرف أنهم يرتدون قبعات واسعة ، وعباءات تنطير أطرافها كلما تحركت الخيول ..
الأفراس تقف صفواً واحداً كأنما هي بانتظار شيء ما ..
بعد دقائق يدوى صوت راكب الفرس السابع ، وقد وقف أمامهم كأنما سينقلى عليهم محاضرة :
- « ماذا تبتغون ؟ »

- « الدم ! »

يدوى الصوت جماعياً رهيباً صادراً من سمك حناجر
غاضبة .. ويعود الأول يسألهم :

- « وماذا جاء بكم ؟ »

- « الدم ! »

- « كم تدفعون لأجله ؟ »

- « أرواحنا ! »

- « متى تكفون ؟ »

- « حين نرتوى ! »

- « ومتى تترتبون ؟ »

- « حين يسود العدل ، وتنام الحملان جوار السباع ! »

- « إخوان ؟ »

- « إخوان الدم ! »

وعاد السكون ينسج عثته يبطء فوق الرمال ، بعد
ما مزقته الصيحات .. وعرفت (عيبر) أن ما جرى هو
نوع من الطقوس ئمارسها جماعة ما .. نوع من ترويض
ميثاق العهد ..

ولكن من هؤلاء ؟ .. وماذا يريدون غير الدم ؟ ..

هي - عموماً - غير راحية فى تقديم نفسها إلى
هؤلاء السادة ذوي الميول الدموية ..

ولمحت خيولهم تتصرف من موضعها ، حيث رقدت

على بطنها فوق الرمال ترمق ما يحدث فوق مرتفع ..
سبعة ظلال مهيبه تنتعد نحو الغرب .. نحو قرص
الشمس الهائل ذاته ، كأنما تتلوى فيه ..

وحين رحلوا - أخيرا - راحت تهبط المرتفع ..
يا لرشاققتها !.. إنها تشعر بأنها أخف من أرنب
صغير .. وهي تجيد الانزلاق على الرمال ، كأنما تفعل
هذا منذ صغرها ..

سمعت صوت همهمة ..

لم يكن هذا سوى جواد .. جواد رشيق بارع الجمال
يقف بانتظارها وقد راح يعاين الرمال بحافره ..
وأدركت أن هذا هو جوادها بالذات ..

دنت منه وريقت على منخره مداعبة .. هي لم تلمس
جوادا في حياتها ، لكنها تحب الجواد بجنون .. إن
العلاقة بين المرأة والجواد لعلاقة أزلية أسطورية
تحتاج إلى خبير في علم النفس ليفسرها .. ما هو أول
حلم تراه فتاة مراهقة ؟

دائما هو حلم الفارس الذي يختطفها فوق حصان
أبيض ..

إن الحصان هو معادل لروح الأتلى القلقة الراغبة
في الفرار .. بعيدا .. بعيدا ..



سبعة ظلال مهيبة تنهد نحو الغرب ... نحو فرس
الشمس الهائل ذاته كأنما لتذوب فيه ..

ولم يكن الحصان مسرجاً .. لكنها أدركت أنها قادرة
حتماً على ركوبه .. لم لا ؟ .. ألهمت هندية .. ؟ ..
ألهمت هذه (فانتازيا) ؟ .

وبالفعل ..

وثبت دون جهد إلى ظهره ، ولقت ساقها حول
جذعه .. ثم ضربت عنقه براحتها ، فالتفت برعش
فوق الرمال ..

إلى أين ؟ .. لا تدري ..

بالتأكيد هو يعرف .. أما هي فقد ذابت في هذا الحلم
الذي لا يوصف .. إنها تتركب جواداً ينطلق بها نحو
قرص الشمس الغارب ..

الموجودات تبرد .. والثلون الأرجواني يدخل نطاق

الأزرق ..

وحراة الجو ثقل تدريجياً ..

ومن بعيد ترى أمجاراً .. وتاراً .. وبشراً ...

كان المشهد موقفاً إلى حد غير عادي ، ولم تحسب
قط أن كل هذا ممكن .. وأن خيالها بهذه الخصوبة ..
مصغر هندي كامل متكامل .. بخيامه المزركشة ..

وخيلولة .. وأطفاله العراة .. وكلايه .. وتسانه اللواتي
ينشرون اللحم المقد على حبال كحبال القصيل .. ورجاله
الجالسين حول النار .. والطوظم الواقف في منتصف
المكان .. عمود طويل من الخشب نقشت عليه وجوه
مخيفة مجسمة ..

وقفت مشدوكة ترمق كل هذا ، وتصلبت أمانها
حول حلق الجواد .. بالتأكيد هي تنتمي إلى هنا ..
رأت رجلاً عاري الجذع قد حلق أكثر شعر رأسه
تاركاً خصلة في المنتصف ، كما يفعل شباب هذه الأيام
بموضة (البانك) .. رآته يتقدم منها وعلى وجهه
علامات التساؤل فيساعدها - بيد فولاذية - على النزول
من فوق ظهر الجواد ..

ثم يسألها بصوت خشن :

- « ماذا وجدت (صخرة الماء) ؟ »

كان يتحدث بلغة غريبة مليئة بالهاءات والتواوات ..
لكنها تفهمه تماماً .. كما هي العادة في (فاتنازيا)
حيث لم تعد اللغة تمثل مشكلة من أي نوع ..
قالت بصوت مماثل في الخشونة ، وبذات اللغة :
- « (صخرة الماء) وجدت وجوها شاحبة .. سبعة »

« وماذا كانوا يبحثون ؟ »

« تحدثوا عن الدم .. قسم الدم .. »

« آه ! »

حتى تعبيراتها صارت مختلفة .. شاعرية قليلا ..
كما تعرف الهنود الأحمر أن يتكلموا في كل الأفلام التي
رأتها ..

فأداهما الرجل إلى مجلس انتار .. ، فرأت حوالي
خمسین رجلا جالسين حول عجوز متهدم .. وإن بدا أنه
يمثل ثقل الزعامة هنا .. له عينان ذابلتان زجاجيتان ،
وفم جعته التجاعيد كثرة طماطم نسيبتها شهرين في
ثلاجتك ..

وكان يدخل من ذلك الغليون الطويل المعلق به
ريش ، والذي يدخلونه دوما ..

جنست جوار الرجل الأول بقرب العجوز .. وانتظرت
أن يحدث شيء ما .. لكن شيئا لم يحدث ! ..

ربع ساعة كامل من الصمت الذي له رائحة التبغ ا
متى يتكلم هؤلاء الحمقى إذن ؟ ...

بعد ربع ساعة آخر بصق العجوز في النار .. وتناول
غليونه للجالس جواره .. ، وهنا قال له الأول :

« يا خمسة نمور .. إن (صخرة الماء) قد عادت
من جوتتها .. »

« هوروروم ! »

« نقول : إن هناك وجوها شاحبة .. »

« هوروروم ! »

« من المحذور عليهم دخول أرض (السيوكس) . »

« هوروروم ! »

« إن (تو النمامل) يرى - بوصفه ابن (خمسة

نمور) - أن هذا خرق للهدنة لن يمر دون عقاب .. »

« هوروروم ! »

ونهض الفتى - الذى عرفنا أنه (تو النمامل) - وأخرج

قامئا صغيرا من نظاقه .. ولوح به عاليا :

« الموت للوجوه الشاحبة !.. إن الطبيب فيهم هو

الميت ! »

فتمالئ صراخ الرجال رفيفا كسحنة مصابة

بالبواسير :

« هنى يى يى ! الموت لهم ! هنى يى يى ! »

جلست (عهير) معتقة الوجه ترمى هذا الذى

يحدث ..

كل شيء يبدو واقعا مخيفا مريعا ..

إن هذا الجو الوحشي الوثني لا يناسبها حتما ..
خاصة أنها - للمرة الثانية - تدرك أنها تلعب دور المخبر
أو الجاسوس ..

في المرة الأولى مع (جالكتينا) في سجرة أخرى ..
والآن مع (السيوكس) هاهنا ..

شعب وجهها .. ثم تذكرت أنها تجازف بحياتها لو
صارت وجهها شاحبا .. من ثم اكتفت بأن يمتقع وجهها !
للمرة الأولى تسمع صوت الزعيم يقول شيئا آخر
غير الـ (هووم) ..

وكان صوتا واهنا فيه برد الشتاء ومرارته :

- « إنني أنتظر اللحاق بأجدادي في أية لحظة .. لكنني
أكره أن أترك أبنائي الثمانية يتخبطون في الدماء ... إن
الوجوه الشاحبة ألقوا ولديهم مدافع .. لهذا أرى أنه
من الشجاعة أن نترث ونعرف نواياهم .. قد يكون من
رائعهم (صخرة الماء) عابري سبيل ضلوا الطريق ..
الحروب يا أبنائي لا تبدأ من استقراز غير مقصود ..
وأرى أن الصواب يقتضي أن نعرف المزيد عنهم وعن
نواياهم ، و (صخرة الماء) خير من يفعل .. لأنها
تعرف لغتهم ولأنها منهم من ناحية الأب .. ولأن

(خمسة نمور) يعرف أنها هندية تماما برغم ما لوث
بمها من دماء الوجوه الضاحية ..
ومذ يده يتناول الغليون .. وأردف :
« لقد قال (خمسة نمور) كلمته ! »
عندئذ ساد الصمت ..
وعرفت (عبير) أن مهمتها قد تحذت ..
ولا مجال للتقاش ..

★ ★ ★

٢ - مهمة سرية ..

دخلت (عبير) إلى الخيمة التي فهمت أنها دارها ..
داخل الخيمة مظلم لكنه رطيب منعش ..
وكانت هناك جلود عديدة مغلقة ، ومفروشة على
الأرض ، وعجوز جالسة تلتهم شيئاً ما في طبق ..
فما إن رأت (عبير) داخلة حتى هتفت :
« عندك بعض القنيد .. يمكن أن تأكله .. »
تحسست (عبير) المكان في حذر .. وجلست جوار
المرأة وتأملتتها .. هذا ما توقعته منذ سمعت الصوت ..
إنها أمها .. في الواقع وفي الخيال .. هي ذاتها ..
لشد ما أبدى (دى - جى - ٢) براعة مذهلة في
وضع اللمسات المتعمدة لوجه العجوز الطيب ... لقد
ضفر خصلات شعرها الأبيض .. وجعلها ترتدى ثوباً من
جلد الثيران .. وأضاف بعض تجاعيد (هندية) على
ركنى فمها ..
طبعاً لن تحدثها (عبير) عن (غمرة) وعن حياتهما ..
بل ستحدثها باعتبارها عجوز (السيوكس) .. أمها ..
قالت (عبير) وهي تلتهم ما بطبقها :

- « الزعيم يريد أن تذهب (صخرة الماء) إلى
الوجوه الشاحبة .. »

- « حسنا رأى .. وماذا قال أخوك ؟ »

- « أخى ؟ »

- « نعم .. (ذو الدماسل) .. كيف يرى ذهابك ؟ »
إن (ذو الدماسل) هو أخوها .. ولكن كيف ؟ .. لابد
أن أمها تزوجت مرتين .. ، ولكن معنى هذا أن الزعيم
الهندي تزوج من مطلقة الرجل الأبيض .. فكيف ؟ ..
قالت الأم وهي تلوك شيئا :

- « أنت شجاعة كابيك .. كان خير من يضرج
الثيران بالدما .. ولكن من مرة رمى بنفسه إلى أعضان
نبا ثائر : ليمزقه بمديته .. »

وحين قال لى (أحبك يا بصقة الجاموس) .. لم
أستطع أن أرى .. جريت إلى خيمتى وتركتى واقفا جوار
النهر مع ظهر قاهم لشمس .. ، كان يتربد علينا كثيرا ..
ليبيع لنا التيف والبساقى .. الجميع كان يحبه وخاصة
أنا ، لكن قوائين (السيوكس) صارمة .. لا يمكن لذى
وجه شاحب أن يتزوج فتاة هندية .. وفرت معه فى
ليلة صيف باسمه .. مضينا إلى الوديان البعيدة وبهنا

كوخا عشنا فيه .. وتزوجنا .. ورزقنا بك .. كانت
تلك أياما جيدة .. ؟ »

قالت (عجير) محاولة أن تبدو عظيمة بالأمر :

« أظن أن قتل الهنود له كان ألينا ؟ »

« لم يقتله الهنود .. بل ذور الوجوه الشاحبة .. »

كيف نسيت ذلك ؟ .. وعدت بك إلى هنا .. فوافق الزعيم

على أن نعود للانضمام إلى القبيلة .. بل وزوجنى ابنه

(خمسة نمور) لأنه كان يحبى منذ زمن بعيد .. ،

وهلذا اليوم زوجة الزعيم وأم أولاده (تو الدمامل) ،

و (الماشى للخلف) و (الكلب السعران) و (السنجاب

الأحمر) .. وأمك ؟ »

هكذا فهمت (عجير) العلاقات الأسرية المعقدة

المحيطة بها ، وإن لم تستمع قط أسماء إختوها من

الأب .. فهي أسماء غير مشرفة ولا توحى بالثقة

عموما ..

ودعشنا المرأة إلى النوم ، فمدت جسدها المتهك

لوق الحشية شاعرة بقسوة الأرض وخشونتها ..

وأغمضت عينيها .. وراحت تحلم ..

تحلم بالمدرسة .. ومكتب (الكمبيوتر) .. و (شريف) ..

كما قلنا آنفا .. من الطبيعي في الحلم أن نحلم
بالتواقع .. كما أن نفي النفي إثبات ..

★ ★ ★

صحت من النوم شاعرة بشعور ألف لصون ركلتهم
أحذية ألف شرطى فظ ، إذ قبض عليهم متلبسين بالقتل
فى الزحام ..

وأدركت أن هناك من يهزها .. كما أدركت أن الديك
يصيح ثلاثا .. وأدركت أن الظلام مخيم بالخارج ..
عادت تواصل النوم .. لكن الهزات صارت أكثر
عنفا .

وسمعت من يقول لها :

« هيا ... قد تأخر الوقت ! »

صاحت فى حلق :

« ما الذى تأخر ؟ .. ما زال الظلام دامسا ! »

« إنه الفجر يا (صخرة الماء) .. وقد صاح الديك

ثلاثا .. »

نهضت مفككة الأوصال منحرفة المزاج .. فوجدت
جوارها طبقا مليئا بالقديد .. دست فى قمها خفتين
منه .

وخرجت من الخيمة لتري الظلام فى كل مكان ،

ورأت فتيات يحملن بعض الجرار الفخارية .. خطر
لها أن المرأة - في كل مكان - يكون عليها أن تحمل
جرة فخارية في الفجر ذاهبة إلى النهر .. هذا هو
قدرها .

حملت جرتها على رأسها ومشيت وراءهن ، وهي
تسب وتلعن في سرها .. كل شيء .. الصباح والديك
والنهر .. كل هذا يمكنه أن ينتظر قليلاً ريثما تنال قسطاً
من النوم ..

راحت الفتيات يمازحنها .. وعند النهر قذفت إحداهن
وجهها براحتين ملينتين بالماء .. وأدركت (عبير)
أنها مصدر تسلية وسخرية دائمتين للفتيات لأنها
(خلاسية) .. ولأن منبتها ليس هندياً نقياً تماماً ..
حتى ولو كان الزعيم هو زوج أمها ..

جلست على حافة الماء وراحت تملأ جرتها ..
وترمق في الماء صورتها التي راقت لها كثيراً ..
فجأة دوى صوت الخريف ..

إن صوت الدببة ليس خريراً لحسب .. بل هو مزيج
من هدير وزئير وخوار وعواء وغطيط .. لا يمكن
للقطة واحدة أن تصفه ..

خطر لها هذا وهي تسمع الصوت .. وتسمع صراخ
الفتيات .. ثم تدير رأسهما لتري ذلك الجبل الأشهب
العملاق المكسو بالفرء : يبرز من وراء الأشجار في
ضوء الفجر الأرجواني البكر ..

ورأته يهرع نحوهن فوق أربع .. تب أشهب من
النوع الذي يسميه نورو الوجود الشاحبة (جريزلي) ...
كانت سرعته لا تصدق .. ثم تتخيل قط أنه قادر على
هذا الانقضاض ..

وحين وقف على قدميه الخلفيتين ، ووجه ضربة
بيده المختبئة إلى الفتاة الأولى .. سمعت (عجير)
فترات علق الفتاة وهي تنهشم .. وسقطت الفتاة
أرضاً .. فقضم عنقها .. ثم عاد يهرول فاصدا حشد
الفتيات اللواتي ولولن .. ورمين الجرار أرضاً ورحن
يجرين هنا وهناك ..

إنه قائم لي .. !

كانت تعرف هذا وتؤمن به ..

لن يتركها .. سيختارها هي بالذات .. دون الأخريات .
بالفعل رأته يركض نحوها على أربع .. واللعاب مع
قدم يتطنير من فيه .. السنام العملاق بين كتفيه
يهتز .. والغضب الجشع يلتصق في عينيه .. و ...

لم تحاول الهرب .. ألصقت ظهرها بشجرة وانتظرت ..
 وهنا تصلب الدنيا .. كفة عن التضخم في عينيها ..
 وقف على قدميه الخلفيتين ، وأطلق صرخة مدوية
 عاتية ارتجت لها الأرجاء .. وفرت الطيور من
 أعشاشها .. تلك الطيور التي لم تعد الاستيقاظ مبكراً ..
 وهوى الجسد العملاق فوق الكلا يتحطرج ..
 ثم همدت حركته تماماً ..

وحين فتحت عينيها : كانت أصداء طلقة الرصاص
 تتردد في الأجواء .. ورأت فارساً يركب جواداً وقد
 أمسك ببندقية بعيد حشوها بالرصاص ..
 كان يرتدى قبعة .. ولثاماً .. وعلى كتفيه عباءة
 تتطاير أطرافها في الهواء .. والدخان ما زال ينبعث من
 فوهة سلاحه ..

وقف ثابتهين ليرى ما إذا كان الدنيا ما زال حياً ..
 ثم جنب لجام فرسه ، فأتلق ، ليقتل بين الأشجار ..

إخوان الدم ! ..

حتماً هو منهم .. يلبس مثلهم .. ويبدو مثلهم ..
 وقد أنقذ حياتها في اللحظة الأخيرة ..



كان يرتدي قبة .. ولثامًا .. وعلي كتفيه عباءة
تتطاير أطرافها في الهواء ..

فيما بعد قال لها (ذو الدمامل) :

- « لا عليك .. إن مهاجمة الدب المنموعة عند النهر جزء تقليدي في أية قصة تدور عند الهنود .. لا بد من دب .. لكن المشكلة تكمن في الرصاصة .. من صاحب هذه الرصاصة التي أنقذت حياة (ذو الدمامل) .. ؟ »
قالت له للمرة الرابعة :

- « لم أراه .. جاءت الرصاصة من بين الأشجار .. »
قال وهو يبزي رأس السهم الذي يمسكه :
- « لقد مشط رجالنا وكشافونا الأشجار .. ووصلوا حتى وادي الهلاك .. لكنهم لم يجدوا له أثرا .. »
ثم أردف وهو يضع السهم في قرايه :
- « يجب أن تذهبي غيدا إلى الوجوه الشاحبة :
لتعرفي نواياهم .. »

★ ★ ★

وكيف ذلك يا (ذو الدمامل) ؟

إن الأمر ليس بسيرا .. فلن تذهبي (صخرة الماء) إليهم كامرأة نصف هندية .. إن الوجوه الشاحبة لصوفس وأوغاد .. ولن يرحموها .. سيكون عليها أن تتكرر ، ترتدى ثياب النساء هناك .. وتضع طلاء

شاحباً على بشرتها من دهن الجاموس .. وثبتت شعراً
أشقر على شعرها ..

الملاهي أمرها حين .. فديننا ثياب امرأة بيضاء كنا
قد هاجمنا عربة المسافرين التي تقلها منذ عام .. ،
صحيح أنها ملوثة بالدماء لكن النسوة سوف يغسلنها
جيداً ..

الشعر كذلك حين .. فديننا فروة رأس ذات المرأة ..
وكنا قد سلخناها لحسن الحظ .. إن (الأباثن) الحمقى
لا يحبون سلخ الرعوس ، وهذا يقلل حصيلتهم من
الشعر المستعار ..

أما عن اللغة .. فأنت تجودينها تماماً ..

يبقى المبرر لقدومك ..

وهذا سهل .. منهاجم عربة مسافرين وتدميرها .. ،
بعد هذا تقلين جوارها تبهين .. إلى أن تمر عربة
أخرى .. عندئذ تدعين أن الهنود هاجموا العربة التي
كنت بها ، وأنت نجوت بمعجزة .. وتطلبين توصيلك
إلى المدينة ..

والى المدينة تريد منك أن تلتحى عينيك وأذنيك كقط
برى يتسلل .. ما هي نواياهم ؟ من أولئك المتسللون
قرب حدودنا ؟ هل توجد حاميات للجنود الزرق ؟

وحيث تنتهين .. تفرين في جنح الظلام عائدة لنا ..
لا تنسى أن تأخذي هذه التهويذة .. ضعيها حول عنقك
كي تحميك .. واخذي هذه أيضا .. إن الوجوه الشاحبة
تستعملها في القناء الأشياء .. يسمونها (لولرات) ..
فهم متخلفون لا يحيون نظام المقايضة .. بل هم
لا يرون أهمية للملح ولا التبغ ولا الحنسي الزجاجية
الملونة .. إنني لأسأل نفسي عما إذا كان هناك حد
للغباء البشري !..



وهكذا ..

ترون (عبر) الآن وقد تبدلت تماما .. هي الآن
أمريكية شقراء ترتدي تنورة واسعة مزركشة وقميصا
أبيض .. وقد تبعثرت خصلات الشعر الذهبي على
كتفها .. وبدأ عليها الإعياء وعظام السفر ..
تقف جوار حطام محترق لعربة مسافرين يتصاعد
منها الدخان ، وقد امتلأ جدارها بالسهم الهندي ذات
الريش .. وهي سهم من النوع الذي يستعمله (الأباش)
طيفا وليس (السيوكس) .. وثمة بلطة ملقاة على
الأرض .. ورجلان تم ملخ فروة رأسيهما .. وتمرغ
وجهاهما الميتان في الرمال ..

الطريق يمتد إلى بعيد في الصحراء .. والقيظ يحرق
بشرتها .. فتمد يدها إلى قرية انماء تجرع منها عدة
جرعات ..

والآن ترى غباراً في الأفق ..
وترى عربة تجرها أربعة جياد .. يلهب ظهرها
بالمسوط حوذي يدين يضع زجاجة خمر في جيبه ..
العربة تدنو أكثر .. والآن يراها الحوذي فيشد اللجام
يعتف وتتغرس الحوافر في الرمال ..
« أوهيه !.. فتاة هاهنا ؟ »

فتدنو منه (عبير) لتقول لاهثة :
« (الأباش) ! هاجموا العربة .. نجوت بأعجوبة ! »
هرث الرجل عنقه ورأسه .. وتجشأ .. وقال :
« تبأ لهؤلاء الوثنيين .. إن الهندي الطيب هو
الذي مات ..!.. إن الجنرال (سكوت) يعرف حقاً كيف
يعامل هؤلاء .. »

كان ثملاً .. عرفت هذا من أنفه المحمر الغارق في
العرق ..

هذه هي قواعد قصص (الوسترن) .. الحوذي لابد
أن يكون بديناً ثملاً .. كما أن قواعد القصص الروسية

تحتّم أن يكون الإسكافي (ثَملاً) وأحمر الألف
(كسرطان البحر المسلوق) ..

قال لها وهو يترزع قبعتها : ليبدو راقياً :

- « من أنت يا سيدتى ؟ »

- « أنا .. أنا (شارون ستون) .. من (أوهايو) »

لم تجد اسماً أمريكياً آخر فى ذهنها سوى اسم هذه
الممثلة التى ترى صورتها أحياناً فى صفحة المصنفا
بالجريدة ... من العسير أن تجد اسماً حين تبحث عنه ...
وعلى كل حال واضح أن الحوذى لا يتابع المصنفا
اتعالمية لحسن الحظ ..

- « إذن .. اركبى .. نحن ذاهبون إلى (هيل تاون) (*) »

برشاقة دارت (عبير) وفتحت باب العربة الخشبية ..
وصعدت لقدس جسدها بين الركاب ..

وبدأت العربة تتأرجح ببطء نحو المدينة ..

لقد انتهى الجزء الأول من الخطوة ..

دون مشاكل ..

★ ★ ★

(*) مدينة الجحيم .

٤ - إلى (هيل تاون) ..

راحت (عبير) في حذر تتأمل الجالسين معها في
العربة ..

أما هذا البدين المتألق الذي استرخى كرثته أمامه ،
واسترخت كفاء متشابكتين على كرثته ، وأرجع رأسه
للوراء غارقاً في غطيط عال .. فهو نمط .. نمط الثرى
الاستغلائي الجبان إلى حد ما .. ، إنه من أنماط البشر
التي لا تحتاج لمزيد من التعقيد .. كما أنك لمست في
حاجة لشرب كوب العصير كله ؛ لتعرف أنه حامض ..

أما هذه المرأة التي ترحى رقابها على وجهها ، تبدو
من ورائه عيناها التفائتان اللتان ترمقان (عبير)
كغراب .. فلا يمكن التكهّن بشخصيتها ..

بعد هذا يوجد كهل يرتدى السواد ، وقبعة سوداء
على رأسه .. ويمسك الكتاب المقدس يطالعها في
اهتمام .. إنه واعظ من الوعاظ الذين يجوبون الغرب
بلا شك ..

ثم - أخيراً - الشاب المتألق ذو الشارب الرفيع
الجميل ، الذي يقول : إن صاحبه يعاني حالة هيام

مفرط بذاته .. ولم ينفك يتأملها باعتبار هذا واجبه
القدرى نحو أية فتاة شابة ..

بعد ثوانٍ التحنت المرأة التتاول من حقيبتها القماشية
شيئاً ما .. وناولته له (عبير) ..
كان هذا الشيء شطيرة .. وقالت له (عبير) لى
صرامة :

« لا بد أنك جائعة .. »

قضمت (عبير) قضمة ، وبغم مليء بالطعام
خضعت :

« حقاً .. أشكرك .. »

« إن شكك مروع ! .. »

« لقد هاجمنى (الأباش) منذ دقائق .. »

« هذا ليس مبرراً .. » - ومطت شفتيها مشمزة -

« المرأة الأنيقة تظل أنيقة حتى وهي فى معدة حوت ! »

« ربما ... »

« ولماذا تسافرين وحدك ؟ »

« أوه .. كنت مع زوجى .. لكن (الأباش) ... »

« هذا ليس عذراً .. » - ثم قالت فى تألف :

« .. المرأة الطاهرة تفضل الموت مع زوجها على أن

تسافر وحدها ! »

هنا فهمت (عبير) ما يحدث .. إن هذه المرأة هي
نموذج للعالم التي تمتد الكون والناس ؛ ونتيجة لهذا
تعدو من غلاة المتطهرين .. وظليعة المدافعين عن
القضايا .. وهي تجد ذاتها في يوم الآخرين وانتقادهم .
وهنا انفرت العربية فطارت المرأة لأعلى ؛ ليصطدم
رأسها بسقف العربية .. وسقطت على مقعدها منهكة
تغمغم :

« .. إن هذه المتطلبات .. »

في الشعار عميق قالت (عبير) :

« .. هذا تيمس مبررا .. المرأة الواقور لا يصطدم
رأسها بسقف العربية أبدا .. ! »

« .. هذا حق .. سامحيني .. »

★ ★ ★

الحضى الشاب في رقة ، ونزع قبعته .. وسط عينيهِ
البينيين - اللتين يظن أنهما تتمتعان بتأثير فتاك - على
(عبير) وقال :

« .. لابد أنها كانت تجربة قاسية يا سيدي ؟ »

« .. (سنون) .. (شتروون سنون) .. »

قال في مزيج من التملق :

- « أنا (جيف جولدبلوم) .. محاسب .. أما الانسة فهي من (بلومر) .. (إماليا بلومر)^{١٩١} وهي في زيارة لشقيقتها في (هيل تاون) أما هذا ... »
وأشار إلى الرجل الغافى ..
- « .. فهو مستر (فيك جانت) .. تاجر من كبار التجار في الشرق .. أما الأب .. »
وأشار إلى صاحب الثياب السوداء :
- « فهو الأب (جيمس كاتريل) .. »
هز الرجل رأسه في وقار .. ويتسم برعن فيه .. ثم واصل القراءة في اهتمام ..
- « واعظ من الشرق يريد أن يعيد كل هؤلاء الخطاة إلى جادة الصواب .. »
وهنا صاح الحوذي من مقعده .. وهو يجذب اللجام :
- « يا للغة ! .. عصابة الـ (باتديتس) ! »
- « ماذا ؟ »
بدا الذعر على الجالسين بالعربة .. وتوتر الجميع ..

(٩) (إماليا بلومر) هي المجاهدة التي ملحت المرأة الأمريكية حق الانتخاب .. بأنها من مصادقة

ونظرت (عبيد) من النافذة لترى أربعة رجال على
ظهور خيولهم يتفنون ليسدوا طريق العربية ، وكان
هناك جذع شجرة غليظ يماثل بالعرض ؛ ليزيد صعوبة
الفرار .. لا تدري من أين جاءوا به هنا ..

صاحت العانس في ظل :

« لابد أنك نحس !.. أولا هاجمك الهنود والآن
هؤلاء الأوغاد .. »

كادت (عبيد) تخرج بان هجوم الهنود كان
أكذوبة .. لكنها لم تستطع أن تقول هذا بالطبع ،
وراحت تراقب ما يحدث في قلق ..

سمعت أحد الرجال يحدث السائق بلغة فظة :

« هيه .. أنت يا قرية الدهن .. ابقي حيث أنت ؛
لأن ثقبنا في رأسك لن يزيك جمالا .. »

ثم هتف في تهذيب متأخر :

« قلونزل السادة الركاب .. »

أطلق الوسيم سبة .. ثم فتح باب العربية ووثب منها ..
ولم ينس أن يساعد المراكبين على النزول .. بعد هذا
نزل الواعظ والتاجر الذي لم يفهم بعد ما يحدث هاهنا ..
لابد أن كل هذا كابوس ..

وقفت (عبيد) ترمق قطاع الطرق هؤلاء ..

كان قائدهم ملتحفاً قُذِر الثياب .. يلوك عوداً من
الفش وقد ثبت سلاحه على عنق الجواد .. سلاحاً
عجيباً هو مزيج من الهندقية ذات الأربعة أفواء ..
والمسدس ذي المساقية ..

أما زملاؤه الثلاثة فلم يكونوا أفضل حالاً .. تتهدى
الوحشية في عيونهم الزرقاء .. ونحاهم مشعطة غير
حليقة .. وكان أحدهم يحمل مبلغاً صغير الحجم فوق
السرج .. وقد أخذ عود ثقاب لإشعال الفتيل لو اقتضاه
الأمر ..

نزع القائد قبعته في تهذيب .. وقال :

- « أرجو أن تصامحنى السيدتان عنى ما فى مسئلتى
من لفظاظفة .. لكننا نعالى - أنا ورفاقى - حاجة مزمنة
للحلى والذهب والساعات والدولارات .. واعتقد أن
معاناة الجميع ستتتهى بمجرد أن تفرغوا جيوبكم ،
وتعطونا هذا الصندوق من فوق العربة .. »

فى هلع صاح التاجر وقد احمرّ لثده كعرق نيك :

- « لا !.. إن كل ثروتى فى هذا الصندوق ! »

- « إنها أنباء طيبة .. وإننى لأكرر عرضى بعماس
أكثر .. »

- « أنت لن تجرؤ .. »

- « أنا لن أجرو ؟ ما رأيك يا (بيلى القنر) ؟ »

الفجر (يبلى القنر) - وهو يستحق هذا الاسم حقاً -
يضحك كاشفاً عن أسنان نخرة منسوسة ، ومن الغريب
له (عبير) أن يثأب السيجر الذي كان في فمه لم تسقط
برغم أنه فتح فاه بالكامل . ومعه ضحك الاثنان الآخرين
حتى أدمعت عيونهما ..
وهنا قال القائد :

« هلموا يا شباب .. ولتله هذا الهراء .. »

في حماس راح الزكاب - بالطبع ما عدا (عبير) -
ينزعجون كل شيء ثمين يمسونه أو لمس جيوبهم ..
وكان أكثرهم حماسة هو الفتى الوسيم (جيف) ..
وترجى أحد التصوص : ليجمع كل شيء في متدبل قدر ..
ثم تسلق جانب العربية : ليأخذ الصندوق ..
فما إن وضعه على سرج جواده وسط لموع التاجر :
حتى قال القائد في تهذيب مفتعل :

« والان يا سادة .. اغفروا لنا وقاحتنا .. فنحن
مضطرون لنقتلكم ! »

« لتلك لنت ما تريد .. »

« إن (هاري السفاح) لا يترك شهودا .. »

وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله ، فصدرت قفقة
من الأسلحة تعلن استعدادها .. وحك حامل المدفع عود



وأشار إشارة ذات معنى إلى رجاله ، فاستدوت فمعة
من الأسلحة تمثل استعدادها

الثقاب في السرج فاشتعل .. ولم يذم أن يشعل سيجاره
منه .. ثم راح يرمى الركاب المذعورين في استمتاع ..
« اتلوا صلواتكم الأخيرة .. »

هنا كان الفتى الوسيم قد بلغ نهاية تحكمه في
أعضائه ..

وأدركت (عبير) أن قطرات الماء التي تبلل سرواله
لم تأت من المطر حتما .. ورائه يصبح في هسريا :

« يا .. يا سيد (هاري) .. نحن لم .. نحن لم ..
لا تقتلونا .. إن .. إن هذه الفتاة .. » وبفظافة جذب
(عبير) المذهولة من ذراعها ..

« .. هذه الفتاة هي السبب .. يمكنكم أن تقتل ..
تقتلونها فقط ؟ .. »

في غياء تساعل القائد :

« السبب في ماذا ؟ »

« لا .. لا أنا .. أرحي .. ظننتكم تريدون ضحك ..
ضحية ما .. »

نظرت (عبير) إليه في استمزاز .. الخنزير ! ..
كلهم ينصرفون بنفس الكيفية .. يكونون عشاقا لا يشق
لهم غبار .. وعند يادرة الخطر الأولى يضحون بالحبشية
عند أول لحظة .. وتذكرت مقطعا من الشعر العاسي

الساخر لشاعر مجهول يقول : (يموت حبيبي
ولا استهواش) ! قد يبدو غريبا ومضحكا .. لكنه حقيقي .
قال القائل في سأم ، وقد أثار هذا العرض الأخير
فتوته :

- « هيا يا شباب .. انتهوا سريعا .. »
وهنا صاح الواعظ رافعا يده :
- « لحظة يا أخى .. أنت لن تقبل أن تقتلنا قبل أن
نصلى من أجل خلاص أرواحنا .. »
- « ليكن أيها الأب .. ومن يدري ؟ ربما سألت الله
أن يفر لنا حين تلقاه في العالم الآخر .. »
اتجه الواعظ في عودة ليواجه الركاب ، وأخرج
الكتاب المقدس .. ورسم بيده علامة البركة في
الهواء .. وقال بصوت هادئ وقوي :
- « توبوا يا أبناءى .. فأنتم ستلقون خالقكم بعد
ثوان .. »
لا شيء سوى بكاء العائس .. واصططك أسنان
الفتى .. ولولة التاجر على ماله .. ونهات (عبير)
المنفعل ..
- « .. لهذا تذكروا أن الرب دعانا لأن ... »

وهي الثانية الثانية ، لم تر (عجير) سوى رجلين
من اللصوص يصرخان ويسقطان من فوق صهوش
جوانبيهما .. ، وعندئذ عرفت أن الواعظ كان يخفي
مسدسا في كتابه .. وأنه قد حفر الصفحات ليجعل
منها صندوقا يداريه فيه ..

عرفت كذلك أن عتيها أن تتحنى وتتمرغ في
الرمال .. تسمع صوت الصراخ .. وصوت الطلقات .. ،
وحين رفعت عينيها رأت الواعظ معرغا في الرمال
والدماء .. ورأت قائد اللصوص يطلق الرصاص
كوحش مسعور في كل اتجاه ، ومعها حامل المدفع الذي
أشعل عود ثقاب آخر .. لقد مات الثمان من اللصوص
إن ..

ورأت العانس تزحف على ركبتيها ، والتاجر يحتمى
بالعربة ، وشعرت أن هناك من يجذبها إليه بقوة ..
فنظرت للوراء لتجد الوسيم يركب وراءها متخذاً جسدها
كدرع .. !

« يا لك من خنزير ! .. ألن تكف عن هذا ؟ »

ثم رأت حوافر الحصان تقترب .. وتقترب ..
رفعت رأسها : لتجلى منظورا من أسفل لزعيم
اللصوص فوق صهوة جواده .. كان يرمقها من على

وقد تألفت الشمس وراء ظهره .. ورأته بصوب مدفعه
تجاهها ويقول :

« اثنان بطلقة واحدة ؟ إن إغراء هذا لشديد .. ؟

وحين ضغط الزناد ..

كان آخر ما تمتته (عجير) أن يكفى هذا لإعادتها

للعالمنا ..

وتتمت أن يكون الموت هينا في (فاتتازيا) ..

.....

* * *

٥ - (هيل تاون) نفسها ..

كما يحدث دائماً لم تنطلق الرصاصة من السلاح المصوب نحوها ، بل جاءت من الوراء .. لتصطدم برأس قائد اللصوص .. ويتناثر الدم وشظايا المخ في كل صوب ..

والطلقة الثانية اصطدمت برأس حامل المدفع ، الذي توقف عنبهة وعود الثقاب ما زال بين أنامله .. قال شيئاً ما عن النحس الذي يطارده .. ثم هوى كالصخرة من فوق صهوة جواده ..

هتف التاجر مشيراً إلى الأتقى :

- « انظروا ! »

إذ - في الأتقى - يقف ذلك الفارس راكباً جواده .. على رأسه قبعة ، وأطراف عباءته تتطاير في الهواء .. كان يعيد حشو سلاحه الذي يتصاعد الدخان من فوهته ..

ثم جذب لجام جواده .. وانطلق مبتعداً ..

هتفت العائس في خيرة وهي تنفض الغبار عن ثوبها :

— « لقد أنقذنا .. ولكن من هو ؟ .. هل الفارس

المقنع ؟ »

قال التاجر وهو يضع كفه على عينيه ليتقى الشمس :

— « كلا .. الفارس المقنع لابد أن يصيح في حصانه ،

قاللاً : فلنبتعد يا (سيلفر) ! ، أما هذا فلم يقل

شيئاً .. »

لكن (عيبر) كانت تعرف الإجابة ..

إخوان الدم ..

واحد منهم قتل الذهب .. وقتل اللصين ..

واحد منهم يلعب دور ملاكها الحارس .. فمن هو ؟

ولماذا ؟ ..

★ ★ ★

(هيل تاوون) أخيراً ..

برغم كونه وقت الغروب : يمكننا يا رفائى أن نتأمل

معالم هذه المدينة .. مجرد واحدة من عشرات المدن

المماثلة في الغرب الأمريكى .. ذات الطرقات الترابية ..

دائماً هناك فندق وحانة وحاتونى ومكتب (الشريف)

ومصرف وحداد لتركيب حدوات الخيل ..

ثمة راعى يقدر يجلس فى وضع غير مريح على

مربط الجياد أمام الحانة ، وقد أسدل قبعته على وجهه
وراح يعرف نحلما ما على جيتار عتيق ..

ثمة متسول ضريع .. وبعض عربات تجرها الخيول ..
وبعض المتأثقين قوى القبعات العالية يمشون مع نساء
ذوات قبعات أكثر علواً ..

ومن حين لآخر تخرج ظنقة رصاص من الحانة ، أو
يصطدم أحدهم ببابها الدوار ليقتذف إلى الخارج ،
ويسقط في حوض سقاء الخيل ..

الخلاصة أنها بئدة عادية جداً لا يميزها شيء ..

★ ★ ★

كانت (عبير) تفكر في هذا كله ..

حين راحت العربية تخترق شوارع المدينة الترابية ،
ويمكن الجوزي ثراثاً بما يكفي لدرجة أنه لم ينتظر
توقف العربية ..

بل راح يولول حاكياً ما حدث للجميع ..

وعند مكتب (الشريف) توقف أخيراً .. جذب أخته
الجياد وراح يولول من جديد ..

وتجمع الرجال .. فتحووا باب العربية ، ليفزلوا جثة
الواعظ الذي اخترمه الموت - بالمعنى الحرفي للكلمة -
ومدبرها على الأرض ..

ورأت (عبيد) المأمور يخرج من مكتبه في تسودة ،
وقد دمن إبهاميه في نطاقه ، وراح يلوك لفافة تبغ بين
أسنانه ..

كان بدينا يوحى مظهره بالاسترخاء .. ، وقد ثبتت
نجمة المأمور الشهيرة باستهتار على صدره .. وإن
نزع قميصه على سبيل احترام الموت ..
ركل الجثة بطرف حذائه .. وهتف :

- « هذا (وايلد بوى هيكوك) .. القاتل المحترف
وأخطر رماة (فيرجينيا) .. إن عدد الودعاط المزيفين
في هذا الغرب يفوق عدد الخطاة الذين يعظونهم .. »
- ويصق طرف لفافة التبغ .. وأردف :

- لقد كان قطاع الطرق محظوظين حقاً .. فلا أحد
يظهر مستمداً في حضرة (وايلد بوى) ويظل حياً .. »
- « لكنهم ماتوا .. »

- « الموت بأي سبب غير (وايلد بوى) يكون
رحيماً .. »

قال التاجر وهو يجفف العرق على جبينه ، وأسفل
عنقه :

- « ليس هذا كل شيء .. لقد هاجم (الأباش) هذه
السيدة وقتلوا زوجها .. كان هذا قبل أن تتركب معنا .. »

أغضض الأمور عينا وفتح عينا .. وتأمل (عبير)
فى اهتمام وهو يلوذ لغافة التبغ .. حتى بدا لها كبقرة
عجوز ترعى ..

وغضف فى لا مبالاة :

- « (أباش) ؟ .. هوووم ! .. غريب ! .. لا يوجد
(أباش) هنا »

صاحت (عبير) فى حماس :

- « بل (أباش) .. لقد سلخوا رأس زوجى .. »

- « لابد أنهم (سيوكس) .. (الأباش) لا يسلخون
الرؤوس يا سيدتى ..

وعلى كل حال لا أفنك خبيرة بـ (موديلات) هؤلاء
الهنود .. إن الخلط بين أنواعهم لهين .. كلهم يقتفون
السهام ويقتفون الأثر ويرقصون بالرماح حول النار .. »
شعرت (عبير) بالحقق .. إنها غلطة (نو الدمامل)
الذى حاول أن يسبك التمثيلية بسلخ رأسى الرجلين ..
نقته أفسدها ..

والآن يتجه إصبع الاتهام نحو (السيوكس) ..

رجل يرتدى ثيابا زرقاء ، وعلى رأسه قبعة رسم فوقها
سيفان متقاطعان .. ووجهه يزدان بلحية بيضاء
مهيبة .. كل ما فيه يوحى بأنه عسكري .. وأنه يقود ..

دنا منهم .. فأفسح له الرجال مكانا .. وقال أحدهم :
« إنه الجنرال (سكوت) .. قد جاء من الحصن .
وقف الجنرال يتأمل الموقف .. ثم هتف بصوت
مهيب مجلجل :

« من كان موجودا حين هجم الهنود ؟ »

« هذه .. السيدة .. »

دنا منها .. وبعينين نافذتين تأملها .. وتساءل :

« هل رأيت ما حدث يا بنيتي ؟ »

« ث .. نعم ... »

« أنت واثقة من أنهم كانوا (سيوكس) ؟ »

« أ .. أحسبهم كانوا ... (آباش) .. »

« لا يوجد (آباش) هنا .. إذن هم (سيوكس)

وقد خرقوا الهدنة »

صاح أحد الرجال في مستورا :

« وين لهم يا (جنرال) .. إن الهندي الطيب هو

الذي مات ! »

ترأيت صيحات الحماس تنموي ، فقال المأمور في خفق :

« يا (جنرال) .. إن مسئوليتك هي عن الهنود ..

أما أنا فأحقق في أمر النصوص .. إن نكل منا مجال

تخصصه .. فدعنا لا نفسد عمل بعضنا .. »

قال (الجنرال) وهو ينقل نظراته النافذة إليه :

« أنا لا أطيق المدنيين كما تعلم .. »

« وأنا لا أحمل العسكريين .. »

« إذن ستكون لى لقاءات عدة مع هذه السيدة .. »

ولسوف أجرد حملة تأديبية للقصاص غذا .. »

واتصرف (الجنرال) فى شيء من عصبية ..

فأشار المأمور لـ (عجير) إلى الفندق . قائلا لها :

إنه مريح ولا بأس به .. وإنه سيعود إليها فى الصباح

ليرى ما تملكه من معلومات عن الحادثين ..

« إن (هيل تاون) مدينة قذرة .. لكنها أنظف من

سواها .. »

وعلى باب الفندق حيثها العائن فى فتور .. فهى

ذاهبة لتقيم لدى شقيقتها .. وعرفت (عجير) أن

التاجر والوسيم سيكونان معها فى الفندق ..

إن مهمتها محددة .. ولكن كيف تبدأ ؟

هل تذهب إلى (الجنرال) لتسأله عن نواياه بهذه

البساطة ؟

إن عمل الجواسيس يبدو سهلاً فى السينما .. لكنه

معتقد فى .. فى الحلم إلى درجة لا توصف ...

قرعات على باب الحجرة ..
 ذهبت تفتحه في حذر حاملة الشمعة : لتجد القنن
 التوسيم واقفا وقد نزع قبعته . وراح يبتسم في أنف ..
 - « مساء الخير يا مسز (ستون) .. »
 - « مساء الخير .. »
 ابتلع ريقه .. وغمغم :
 - « كنت .. أتساءل عما إذا كان من الممكن أن
 نقبل دعوتي إلى .. أ .. لنقل سهرة في المطعم .. »
 - « لا .. »
 قالتها في صرامة ، ودفعت الباب لتفتحه ، لكنها
 وجدت حذاءه محشورا في فتحة الباب .. وعلى وجهه
 اللزج اللحوي ارتسمت بسملة مقبلة :
 - « لا تدربن ما سيفوتك .. »
 - « ليس عشاء مع الإسكندر المقدوني على كل
 حال .. »
 ثم فكرت .. لم لا ؟
 إن هذا سيمنحها فرصة الاندماج مع القوم في هذه
 المدينة . وسوف تعرف من كلامهم الكثير ..
 ولكن كيف تخرج بهذه الثياب ؟ .. ثياب المرأة التي



قالتها في سرامة ، ودفعت الباب لتفلقه ، لكنها
وجدت حذاءه محشوراً في فتحة الباب ..

سلخ (السيوتس) رأسها منذ عام ، ثم زانتها أحداث
اليوم سوءا ..

وكانما قرأ القنسى ما يجول بذهنها .. فاتحنى على
الأرض وانتقط تيسا ورقيا به شيء ما .. وقدمه لها
وابتسم ..

نظرت داخل الكيس فوجدت ثوبا جديدا .. يبدو أنه ..
« .. من المتجر .. ابتعته لك الآن .. أعرف أنك
فقدت حقيبتك إثر غارة الهنود .. »

« لكفى لن ... »

« أرجوك ... »

لم تدر ما تقول .. فهي لا ترعب في قبول هدايا من
هذا الفذل .. وهي تتفر دوما من الرجال الشجعان وقت
السلام .. اتجينا إيان الخطر .. ثم قالت لنفسها : إن
الأمر كله حلم .. حتى المتجر ذاته هو من نسيج
أحلامها .. فأى ضير هناك من أن تفعل في الحلم شيئا
تأباه في الواقع ؟

تناولت الكيس شاكرة ، وسمت بخلق الباب في وجهه
حين سمعته يقول في لطف :

« ثم يكتفى سوى عشرين دولارا وعشرة سنتات ..
يمكنك أن تدفعيها لي فيما بعد ! »

أغلقت الباب في غلق .. إن حقارته وخسسته لا تنفق
عند هذا .. لكن هذا أفضل .. إن معها دولارات
(نو الدامل) .. وليعلم هذا الوغد - الوسيم - أنه لن
يستطيع شرائها بشيء دفعت ثمنه بالكامل ..
وحين فتحت الباب - في ذروة أناقتها الأنثوية - كان
أول ما فعلته هو أن دست النقود في جيبه ..
زاده هذا سعادة .. واتحنى ليطيع على أناملها قبلة
لزجة زادها شاربها خشونة .. ذكرتها بملبس أقدام
نودة الفخر ذات المعصات ..

كانت تربي هذه الديدان كقطش من طقوس الزبيع ..
مشيا في الشارع بضع خطوات ..
ثم رائه يفتح باب الحانة ويدخل معها ..
كان الجو غير راق للأسف ..
الدخان يعيق الجو كأنما توقف هناك إلى يوم الدين ..
ونغمات نغاز تنصاعد من براتو عتيق يجلس إليه
عازف زنجي مقصور ..

الرجال جالسون إلى موائدهم ينبون الورق ويحتسون
الشراب ، ومجموعة من صيادي الفراء يلعبون
ال (برادي فير) .. لعبة الأزع الفوية ، وكان هناك
مسيكيون يرتدون (الباشو) - الحرملة المكسيكية

الشيخة - و (السومبريرو) - القبعة المكسيكية الأكثر
شهرة - يحتسون (التاكولا) - المشروب المكسيكي
ساحق الشهرة ..

تساعت (عبير) في حيرة :

- « كيف يجتمع مكسيكيون - وهم موجودون في
الجنوب - مع صيادي فراء - وهم موجودون في
الشمال قرب (كندا) - في مكان واحد ؟ »

قال (جيف) بلا ميالة وهو يشق الزحام :

- « هذه (فاتنازيا) كما تعلمين .. وفي (فاتنازيا)
يفسح علم الجغرافيا مكانا للخيال .. »

- « كما أفسح علم الفلك مكانا في (جالاكتينا) ..

والفسح علم الفيزياء مكانا في (٠٠٧) .. »

- « تماما .. »

ضحكة خفيفة من إحدى فتيات الحانة ، وثمرة في فمها
أحدهم .. ورصاصة تنطلق من مكان ما إلى مكان ما ..
جلس (جيف) مع (عبير) إلى مائدة .. ونادى
المساقى وهو يتعمق لها محاولا أن يفتتها ..

وهنا شعرت (عبير) أن الظلام قد حل ..

رفعت رأسها : تتجدد عملاقا يشبه الجبل حجما
وموضوعا ..

عملاقاً أشعث لاسمى اللحية قد فتح أزرار قميصه :
حتى اليطن . عاشفاً عن صدر مشعر كغوريلا ..
وكان هناك جرح قديم في خده .. وخنجر عملاق يتدلى
من نطاقه .

كان يقول شيئاً ما :

« هيه يا أصغر ! نحن لا نخضع للإنسان هنا ! »
استشاط (جيف) غضباً ووقف .. كان مستوى رأسه
عند بطن العملاق بالضيطة (هذا لأن العملاق كان منحنياً) .
وصاح في حق :

« إننى أطلبك أن تكون أكثر أدباً يا »

« تطلب من ؟ »

وانتهالت لكمة على وجه الوسيم فلم يعد كذلك ..
لكمة ثالثة أطارته مترين إلى الورا .. ثم لكمة رابعة
جعلته يختفى من الحانة (وربما من العالم) إلى الأبد .
وأمام عيسى (عجير) المذعورتين : رأت العملاق
يجلس إلى المائدة .. ويتحنن ليقول لها فى حنان :

« هيا يا فتاة - لقد حان الوقت كي يكون لك رجل

حقيقى ! »

★ ★ ★

(*) أصغر تعنى جيتاً بلغة العرب

٦ - الفارس الوحيد ..

كانت (عبير) تعرف جيدا مشاهي الحانات هؤلاء ..
لكنها لم تجد فكرة للهرب من هذا الوحش .. قنوا
نهضت لجذبها إليه .. ولو صرخت فلن يعبأ بها أحد ..
ماذا تفعل ؟ ..

ومر أحد رواد الحانة جوار المائدة فصاح في مرج :
« هاى ! .. يبدو أن (أجلى جو) قد وجد صديقا »
« الخرس ا ! »

قالها بنبرة حاسمة عميقة .. وعاد يتسم لـ (عبير) .
يا له من مأزق ... !

انفتح باب الحانة الدوار .. ورأت (عبير) راعى
يقر يدخل منه .. كان يضع خرجا على ظهره .. وشيابه
على أسوأ حال ..

ثم ثر وجهه لأن القبة تميل : لتغطي أكثره .. لكنها
رأت أنه يعمل مسدسين في نطاقه . وكانت موضوعين
بحيث يشير مقبضهما إلى الأمام لا الخلف ..
رائته يمشى بتؤدة نحو البار ..

يضع الخراج على المنضدة .. ويربح ساقيه - الثنتين
دقتهما في حذاءين ذوي رقبة عالي الكعب - على مقعد
خشبي مرتفع ..

جاءه السائق اليبين ذو الطراب الكث .. فقال له
شيئا ما دون أن ينظر إليه ..

سمعت السائق يسأله في فضول :

- « هل نلقى جوادك يا راعي البقر ؟ »

هز الرجل رأسه أن نعم .. وتناول الكوب المكمو
بالبغالوي من السائق .. وأفرغه في فيه مرة واحدة ..
قال السائق وهو يجفف بعض الأكواب :

- « إن الغبار يسبب النظما .. ولابد أنك ابتلعت الكثير

منه .. »

ثم برد راعي البقر .. ومد يده يطلب المزيد ..

ثم ألقى قطعة عملة على المنضدة ..

هنا صرخت (عيسير) لأن الوحش السدى يجلس
أمامها ضربها على يدها ، ثيجذب اقتباها إلى دعاياته .
رأت راعي البقر ينهض من مكانه في تودة ، القبعة
تغطي أكثر وجهه لأنه ينظر لقدميه طيلة الوقت ..
في بضع يسير نحو مائدتها ..

يقف أمام العملاق الجالس .. ويقول بصوت منك :
- « دعها تتصرف ! »

★ ★ ★

تحول وجه (أجنى جو) إلى لون الطماطم .. ومنذ
يده إلى الخنجر العملاق في خصره ، وهو يسبها بعنف :
- « يا خيال المأثة .. ستندم على لعبك دور الرجل
القوى ! »

لكنه توقف ..

كان فصل المسدس البارد ينغرس في لحم عنقه ..
وأصدر الزناد صوت الـ (كليك) يوحى بأن المسدس
وحش يحاول التملص من سيطرة من يمسك به ..
متى أخرج راعي البقر المسدس ؟ لم يره أحد يفعل
ذلك .. كانت سرعته لا توصف ..

وبكلمات باردة قال لخصمه الذي فقد حماسه :
- « أرى أننا بدأتنا نتفاهم .. والآن اغرب عن
وجهي .. »

- « ستندم يا راعي البقر ! »

- « ربما .. ولكن ليس على طرفي ثك .. »

نهض العملاق متثاقلاً فلو أن النظرات تقتل لتحول
راعي البقر إلى خيار تفروه الريح .. ويبطء غدار
المكان الذي سادته الصمت ..

وحتى صوت الأنفاس لم يعد هناك ..

وللمرة الأولى ترى (عبير) ملامح راعي البقر ..

كان - مرة أخرى - هو (شريف) ذاته .. وإن بدا
وجهه متعباً صارماً لم يوتسم قط في حياته .. لحيته
طويلة .. وشفتاه متشققتان .. وأظفاره مستطيلة
سوداء ، لقد لوحث الشمس بشرته إلى حد الاحتراق ..
واختلط الغبار بالعرق في تجاعيده وعلى شعر حاجبيه .
لكنه ظل هو ..

لم يكلمها .. فقط أدار العسدين في الهواء بحركة
بهلوانية قصيرة ، فعاد السلاح إلى قرايه ..
وعاد إلى البار ؛ ليواصل احتساء مشروبه ..
- « مرحى ! »

نوى الصوت من مكان ما ..

ورأت (عبير) رجلاً متأنقاً - إلى حد الاستعزاز -
يرتدى بذلة كاملة ، وسلاسل ذهبية ثقيلة تتدلى من
صدارها ؛ رأت هذا الرجل ينهض قاصداً راعي البقر ..
وفي مودة يربت على كتفه ؛

- « أنت شجاع يا راعي البقر .. قليلون هم من
جرعوا على تحدي (أجلى جو) .. »

لم يرد الرجل .. وواصل تأمله في سمعت بلنغ ..

« تعال إلى مائدتنا .. نحن نلعب (البوكر) .. هل تعرفها ؟ »

ثم يري الرجل .. تكن صمته كان يملك الردود كلها ..
فتارة يصمت بمعنى (نعم) .. وتارة بمعنى (لا) ..
وتارة بمعنى (شكراً) ..

هذه المرة كان صمته يقول : نعم ..

وفي ذات التؤدة نهض ماشياً وراء الرجل ..
فداه هذا إلى مائدة انتظرت عليها أوراق اللعب ..
وعليها يجلس ثلاثة رجال لا توحى نظراتهم بالراحة ..
كانوا يتأملون القادم الجديد في التقاد ..

لكنه جنب مقعداً وجلس ..

قال أحدهم وهو (يخلط) الأوراق :

« نحن نلعب ومسدساتنا على المنضدة يا راعي
البقر .. »

أخرج الرجل مسدسيه ووضعهما على المنضدة .. ثم
أمسك بمجموعة أوراقه وبدأ اللعب ..

لن أحدثكم هنا عن تفاصيل ما حدث : لأنني لا أعرف
شيئاً عن لعبة (البوكر) .. و (عبير) كذلك لا تعرف .
لكنني أعرف أن الفتى راهن على مسدسيه . مقابل
واحد من جنياد هؤلاء المائدة المربوطة خارج الحانة ..

سأله المئاتق ذو البذلة :

- « هل تريد توزيع الورق ؟ »

- « نأب ! »

- « هل تريد مزيداً منه ؟ »

- « فأب ! »

إنه يستخدم الـ (فأب) بمعنى (نعم) والـ (نأب)
بمعنى (لا) كحديثي رعاة البقر .. ومنذ أن استعمل
(جاري كوير) هاتين اللفظتين في أفلامه غداً محتتماً
على الفرسان الوحيدين أن يستعملوهما .. جميعهم
بدعاً به (يافالوويل) وانتهاء به (لأكى لوك) ..
دعونا نر الآن ما تم في اللعبة ..

إن الثفتي يخسر باستمرار .. ومجرى الحظ يمشي في
صالح المئاتق دون تردد ..

ايتسامة ثقة كريمة تترقرق على شففتي المئاتق ..
بينما يواصل الكمب وايتسامة غامضة تتلاعب على
شففتي الجالس جوار ..

راحت (عبير) تدور ببصرها في أرجاء الحانة ..
ثم أزمعت أن تغادر المكان قبل أن تتعرض لمضايقة
أخرى .. فالمكان - حتماً - لا يناسب الألسات الرقيقات
مثلاً ..

نهضت لتتصرف .. حين سمعت صوت راعي البقر
يقول فى اشمزاز ضاعطا على حروفه :

- « هذا هو كل شيء .. إن الحظ يكون رائعا إذا
تسلح بقنبل من القتل ! »

ومن كم المتألق رأيت (عبير) عددا من أوراق
الذهب تتساقط ..

كلها (أسات) ..

وفى اللحظة التالية رأيت المتألق يخرج من سوار
قميصه مسدسا دقيقا جدا بحجم صفارة تحكيم المباريات ،
ورأته يصوبه نحو رأس راعي البقر ..

إن مسدسات المقامرین المحترفين هذه شديدة الفتك ..
برغم كونها لا تحوى سوى رصاصة واحدة دائما .

- « أنت ذكى يا راعي البقر .. لكنه ذكاء لا يطيل
العمر .. »

فى اللحظة التالية ركل راعي البقر المذكور أعلاه
المنضدة .. فأنقلبت على الرجال الثلاثة .. ودوت طلقة
فى الهواء ..

ثم وثب على الرجال الواقعين على الأرض .. وراح
يوجه النكبات يمينا ويسارا كما يحلو له ..



في اللحظة التالية وكل راعي البقر المذكور أعلاه
المنفردة ... قاتلت على الرجال الثلاثة ..

إن الركبات لا تستعمل في مشاجرات الغرب أبداً ،
ولكن طريقة القتال هي (النكات القوية في الفك) ..
وأخيراً انتهى الحفل ، فنهض راعي البقر .. استرد
مسنبيه وأعادهما إلى حزامه بحركة بهلوانية سريعة ..
وأصلح من وضع قبعته ..

هنا وصل المأمور (ربما هو الـ (شريف) ، فأتا
لا أعرف فارقاً بينهما في الواقع) ..
جاء بهز كرشه البدين ، ولقافة التبغ بين أسنانه
كالعادة ..

وبنظرة خبيزة قيم الموقف .. ثم سأل :
« من أنت يا راعي البقر ؟ »
رفع راعي البقر المنكور قبعته لأعلى قليلاً .. وعظم :
« يسمونني الجوال ! »
بهتت (عبير) .. في كل مرة ترى فيها (شريف)
يكون اسمه (الجوال) .. ويكون مشغولاً متعمداً على
كل شيء ..

إن في هذا تكراراً لا يخلو من إملال ..
قال المأمور وهو ييصق طرف اللقافة :
« أرى أنك أحدثت قدراً لا بأس به من الشغب ..
هل جئت إلى هذه المدينة لتبقى ؟ »

.. « أظن ذلك ... »

.. « إذن دعني أصارك بأتني لا أحب من هم على
شاكلتك في مدينتي ..

دعني أسمع عن حادث آخر .. ولتجدن نفسك مطروداً
من البلدة مكسواً بالريش والقطران ! »
.. « بابا ! »

أتركت (عبير) أن المسامور متراخ .. يقبل شروخ
بلدته كما هي ولا يطيق أن يجرء من الخارج من يعكر
صفو هذا الصفاء ..

إنه يقبل الفساد ما دام فساداً صامتاً ..
ولا يطيق من يرغمه على اتخاذ رد فعل ما ..
نهضت لتتصرف لكن (الجوال) ناداهما ..
.. « يا أئمة ! »

استدارت نحوه غير فاهمة .. فدنا منها .. وقال في
هدوء :

.. « أنا خارج .. دعيني أوصلك إلى حيث تقطنين »
.. « أ »

وخرجت معه من الحانة على حين عادت تغضت
المعزف تتردد .. وضحكات الغتهيات .. وطلقات
الرمصاص ..

- وفى الخارج كان الظلام دامساً ..
 سألته وهى تمشى جواره ملاحقة خطواته :
 - « هل تنوى البقاء هنا طويلاً ؟ »
 - « باب ! »
 - « هل أنت هارب من العدالة ؟ »
 - « باب ! »
 - « ألا تقول شيئاً سوى (باب) و (باب) ؟ »
 - « باب ! »

إنه لا يحب الشرثرة - فكرت (عبير) - وإن كان
 لا يجيد قواعد اللغة .. المفروض أن تكون عنده لفظة
 مماثلة لـ (بلى) يرد بها على السؤال المتقضى بدلاً من
 (باب) بمعنى (لا) ..

كانت الآن عند باب الفندق .. بالطبع لن تدعوه إلى
 الدخول ..

ابتسمت له فى حرج .. وهنا لاحظت أنه يحدق فى
 عنقها بإصرار واهتمام شديدين .. أتراد يفكر فى خنقها ؟
 لن يدهشها ذلك ..

بعد ثانية أدركت أنه يرمى القلادة التى تلبسها ..
 قال لها وهو يرفع قبعتها عن عينيه :
 - « قلادة جميلة .. »

« شمس .. شكرًا »

« لا يمكنها سوى ابن زعيم (الميوكس) ! »

« ! »

« ولو كنت مكانك لحجبتها بعيدًا عن العيون ! »

.....

★ ★ ★

٧- الخروج من (هيل تاون) ..

كانت الضوضاء تصم الآذان تحت نافذتها بالفندق في
هذه الساعة المبكرة من الصباح ..

نهضت لتري ما هناك ، فوجدت حركة غير عادية
في الشارع .. وراة حشدا أكثر من اللازم للون الأزرق .
كان هناك عجوز رث الثياب ممعدا على الأرض ،
يفسر الموقف لرجل يقف إلى جواره :

- « إتهم (هك ا) جنود الحامية (هك !) زاهبون
لتدمير مصنع الـ (هك ا) سيوكس ! »
- « حسنا يفعلون ! »

تراجعت (عبير) إلى الداخل ..
يالها من مصيبة ! لقد جلبت الويال على (السيوكس)
الذين هم قومها ، وأنها بينهم .. ماذا تقول وماذا
تفعل ؟ لابد من مخرج ما ..

هرعت إلى المرأة فارتدت الشعر المستعار ، وأعطت
طلاء بشرتها بالدهان الشاحب إياه .. ثم ارتدت ثيابها ..
وراحت تجول في الحجرة يمينا ويسارا .. حتما لابد من
إبلاغ قومها .. ولكن كيف تفعل ذلك ؟ كيف تصل إليهم ؟

لا صغر من أن تصرق حصاناً وتغادر البلدة الآن حالا .

نزلت في الدرج ببطء .. وهنا سمعت من يناديها :

« سيدة (ستون) ! .. ماذا تعملين ؟ ..

أجفلت ونظرت للسوراء .. فوجدت القنسى الواسيم

(جيف) واقفاً بجلباب النوم جوار باب غرفته ، وقد بدا

عليه عدم الفهم ..

يا له من وغد ! .. المفترض أن يعترن الوجود تماماً

بعد التعار الذي حل به ليلة أمس ..

قالت له في حلق :

« شعرت بحاجة لاستنشاق الهواء .. »

« في هذه الساعة ؟ »

« هي رلتي لا رلتك .. »

وواصلت الهبوط في الدرج : حتى غادرت القنسى ..

وابتعدت بضع خطوات .. حيث كان الجواد الذي تريده

واقفاً قرب الباب يعب الماء عباً من حوض السقاء ..

ولم يكن امتطلاؤه عسيراً على من هي ذات أصل

هندي .. صوت الحوالم يمزق هدوء الفجر .. ولا أحد

جوار القنسى ليرى ما يحدث .. لأن الزحام كله كان

ناحية المصرف الآن ..

ولكن .. في أي اتجاه تمضي ؟

المفترض أن الهنود يجيدون هذه الأمور .. وإنهم
ليشعرون الأثر شئاً .. لكنها ليست هندية تماماً .. أو —
لمزيد من الدقة — هندية مظهراً مصرية عقلاً ووجداناً .
الصحراء الناعسة من أثر النوم تمنعني في كسل
أمامها ..

والجواد يلهث ..

صوت الحوافر الرتيب يدوي نون انقطاع ..

والنعاس يتسلل إلى عينيها .. لكنها تقاوم ..

★ ★ ★

من نومه صحا الجواد ..

كابت عظامه كلها تؤلمه ، لألمه لم يعتد النوم على
الأسرة قط .. إن هذه الاختراعات اللعينة تتبعج تحت
جسدك ، ولا تلقى عظامك بتلك اليد الصارمة الهاتية
التي تلقاك بها الأرض .. لهذا — يمكننا فهم هذا — كان
جسده كتلة من الألم المتحرك .. لكنه كان بحاجة
للنهوض ..

لماذا ؟ .. لأنه سمع صوت الحوافر الراكضة ، وأرى
راعى يقر يعرف معنى سماع حوافر في الفجر ..

إنها الفتاة حتماً ..

كيف عرف ؟ .. لا أدرى بالضبط .. لكن هذا النوع
من رعاية البقر يعرف هذه الأمور بسهولة ..

نهض إلى المرأة .. وأخرج موسى ؛ ليخلق ذقنه
بالتريقة الجافة كما اعتاد .. وهي عملية غير مثمرة
لأن ذقنه تظل طويلة كما كانت ..

ثم يرتدى قميصه .. وبالطبع كل رعاية البقر
الوحيدين يقومون بالمسروال والحذاء .. والمسدسان ليس
نطاقهما المعلق عند رأس الفرائش ..

ثم إنه يشب من النافذة بحركة رشيقة تقتنف به فوق
ظهر جواده نصف النائم .. إنها

طشش شش شش .. لا يوجد جواد .. فقط مياه
السقاء .. هناك من سرق الجواد وسوف يدفع الثمن ..
وسكير يمر مقترحا بقره يقول له :

« (هك !) يا راعي البقر (هك !) إن هذا ليس
حوض استحمام ! »

فيخرج من الحوض محتفيا .. لو كانت هذه قصة
مصورة لرسم الرسام سحابة من الدخان الأسود تخرج
من رأسه .. لكن الجوال اكتفى بأن يشعل لفافة تبغ
بلوكها تحت ضروسه .. ويزمجر ..

إنن الفتاة قد فرت ..

وبالتأكيد فرت رابية حصاته ..

يا له من حصان خائن ! .. صحيح أنه صار صاحبه منذ ست ساعات فقط بعد ما ربح نعيمة (البوكر)
لانسحاب خصمه .. لكن هذا لا يعنى أن يلزم مع أول
لصة حساء تعطيه ..

إن الخيول لم تعد كعهده بها ..

★ ★ ★

فى هذه الأثناء تمر لحظات سوداء ب (عبير) ..
فالحصان لا يطيعها بتاتا .. بل هو مصرّ على السير
بطريقته الخاصة فى مسار محدد له مسبقا .. كأنما ينفذ
برنامجا متفقا عليه من قبل ..

الحصان الذى ينحرف يمينا .. ثم يسارا .. ثم يمينا ..
ويحير جدولين .. ويسور حول جبل .. : هذا الحصان
يعرف ما يفعله بالتأكيد ولا يركض اعتباطا ..

شرعت تسميه وتلقبه لكن اللعين ظل مصرا ..
أخيرا ترى (عبير) مجموعة من الكهوف .. وترى
الحصان يتمهل فى ركضه .. ثم يمشى بتؤدة داخل
أحدها ..

كان الظلام دامسا بالداخل .. لكن الوغد يعرف إلى
أين هو ذاهب ..

ثمة تيار هواء بارد آت من مكان ما .. واقتشعرت إذ
شعرت به يلمس وجهها ..

خيل لها أنها ترى ضوءا خافتا يدنو من طرف
المكان من وراء الصخور فكتمت صرخة ، وجذبت لجام
الجواد لتوقفه عن التقدم .. فى اللحظة التالية رأت شابا
يحمل كشفا فى يده وفأسا يدنو منها ويتأملها ذاهلا ..
ومن وراء كتفه رأت عجوزا أشيب وعملقا أشقر ..
كلهم يتأملونها ذاهلين :

- « من أنت ؟ »

- « ربما كان على أن أسأل ذات السؤال »

- « نحن أبطال (جول فيرن) نقوم برحلة إلى مركز
الأرض .. ومن المفترض أن تكون هذه الكهوف خالية »
- « وأنا (عبيد) أقوم بمغامرة من مغامرات الغرب »
صاح العجوز فى تفاد صير :

- « هيا يا (أكسل) .. دعك من هذه المتطفلة
ولتواصل رحلتنا ! »

قال (أكسل) :

- « إن إدارة (فانتازيا) غير دقيقة فى مواعيدها ..
كان المفترض أن يرتبوا لها وقتا آخر لمغامرتها هذه ..
هيا بنا يا (هاتز) »

وأمام عينيها الذاهنتين اختلفوا في الظلام ..
من جديد عاد الظلام يسود المكان .. وعاد الجواد
يتقدم بخطى غير الممرات الوعرة .. في النهاية توقف
في جيب كهفي صغير ..

وعلى الجدار تبينت (عير) وجود مشعل ..
وجواره عدد من أعواد الثقاب فتناولت عودا وحكته في
المرج - كما تراهم يفعلون - ثم أشعلت المشعل ..
وراحت تستكشف المكان على الضوء الذهبي
المقراقص ..

وظاويط ... تبا لهذه الكائنات المربعة المشفومة
تتدلى من جدار الكهف العلوي .. وعيونها العمياء
تحقق في القادم الجديد ..

ثمة خيط ماء يسرب من مكان ما فوق رأسها ..
ثم .. الحصان يتوقف كأنما ألهى الحذ المسموح به
نه كي يتقدم .. تنزل (عير) من فوقه ويرفق تربت
على منخره وتواصل السير : لتري ما وراء هذه
النفوة الصخرية ..

ويجمد الدم في عروقها ...
إنها قاعة .. كأنها قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة
هائلة الحجم عليها (شهادات) عملاقة .. وحولها مقاعد ..



إنها قاعة .. كأنها قاعة اجتماعات تتوسطها مائدة خائفة
الحجم عليها (شمعدانات) عملاقة .. وحولها مقاعد ..

اثنا عشر مقعداً على وجه التحديد ...

أى مكان هذا ؟ ..

ولجأة سمعت صوت أقدام .. فهرعت تتوارى فى
الفسحة خارج الكهف تحاول أن ترى ولا ترى .. وبهد
مرتجلة ربتك على منخر الحصان تتوسل إليه أن يلزم
الصمت .. وأطلقت المشعل ..

النوء يتزايد فى القاعة مما يشى بأن الشمعدانات
تشتعل .. ثم ترى أشباحاً تتحرك بالداخل ..

وبصعوبة كتمت سرخة تريد أن تغادر حلقها .. إنها
أشباح حقيقية لا مجازية .. كل منها يضع عباءة
سوداء على كتفيه .. ويحجب وجهه بثياب أسود ..
وعلى رأسه قبعة سوداء ..

ورأت عددهم يتزايد حتى بلغ أحد عشر شعباً .. اتخذ
كل منهم مقعداً على المائدة فى حين جلس واحد فى
الصدارة ، ليوحى بالزعامة .. وقال بصوت رخم صمق :
« أين (هيل تاون) ؟ »

تهائل الرجال النظرات .. ثم عادوا للصمت ..

« ألم تصله رسالتى ؟ »

« بلى .. لقد وصلت إلى (أوكلاهوما) وإلى

(شيكاغو) .. المفترض أنها وصلتته .. »

قَالَهَا أَحَدُهُمْ ، وَعَادَ إِلَى الصَّمْتِ ..
 - « إِنْ سَنِدُ الْاجْتِمَاعِ دُونَ التَّنْقَارِ .. لَكِنْ عَلَى أَنْ
 أَعْرِفَ شَخْصِيَّاتِكُمْ أَوَّلًا .. »
 ثُمَّ نَظَرَ تَجَاهَ أَوْلَهُمْ وَسَأَلَهُ :
 - « كَمْ رِيْشَةً فِي جَسَدِ الْمَسْنُونِ ؟ »
 - ثَلَاثُمِائَةٍ .. »
 نَظَرَ لِلثَّانِي مَتَسَائِلًا :
 - « كَمْ شَعْرَةً فِي لَحْيَةِ الْعَمِ (سَام) ؟ »
 - « أَلْفٌ .. »

وَهَكَذَا .. وَأَبْرَكَتِ (عَبِير) أَنْ هَذِهِ الْإِجَابَاتُ يَحْفَظُهَا
 كُلُّ مَنْ الرِّجَالُ عَلَى الْفَرَادِ فِي نَهَايَةِ الْاجْتِمَاعِ لِيَجِيبَ
 عَنْهَا فِي الْاجْتِمَاعِ التَّالِي ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ لَا بِأَسَى بِهَا
 لِنَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّهُ نَفْسُ الرَّجُلِ الَّذِي حَضَرَ الْاجْتِمَاعَيْنِ دُونَ
 كَشْفِ وَجْهِهِ ..

وَمِنْ الْهَدِيْهِ أَنْ الْأَسْئَلَةَ تَقْصُرُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ ..
 بَعْدَ هَذَا هَتَفَ الزَّعِيمُ :
 - « مَاذَا تَبْتَغُونَ ؟ »
 - « الدَّمُ ! »
 - « وَمَاذَا جَاءَ بِكُمْ ؟ »
 - « الدَّمُ ! »

« كم تدفعون لأجله ؟ »

« أرواحنا ! »

إلى آخر هذا الديالوج الممن الذي يذكره من قرءوا
الفصل الثاني ..

وأدركت (عبير) أن هذا هو مثقفى « إخوان الدم »
الذين اصطدمت بهم عدة مرات .. وراحت تستفتح
العلاقات التالية :

الحصان قادها لهذا .. إذن هو حصان عضو (هيل
تاون) .. الحصان يخص الجوال ، لكنه لم يكن كذلك
ليلة أمس .. كان يخص المقامر المحترف المتأنق ..
إذن هو (هيل تاون) ذاته ..

وإذن المقامر مجرد شخصية وهمية يتبعها .. أما
الحقيقة فهي أنه — مثل (زورو) — يتحول ليلاً إلى
عضو فى هذه الجمعية السرية ..
جمعية (إخوان الدم) ..

أما لماذا تخشى عن حصانه بسهولة برغم كون
الحصان يعرف أكثر مما يجب : فلأن حالته بعد مشادة
الحاة لم تعد تسمح له بالمقاومة ..

إذن لا خوف هناك .. لقد أنقذها « إخوان الدم » من
الموت مرارا .. إنهم أخيار برغم مظهرهم المرعب ،
وغموضهم المخيف ..

وها هي ذي تسمع هذه المحادثة :

- « ما هي إنجازات الأسبوع يا سادة ؟ »

قال أحدهم في حماس :

- « لقد أحرقت ثلاثة زنوج أحياء ! »

- « مرحى ! .. فلنحيه ! »

راح الرجال يقرعون المائدة بكعوب مسدساتهم في

تفاقم إيقاعى لا بأس به أبداً .. كلاك .. كلاك ! .

ثم سأل الزعيم ثلثتهم عن إنجازاته :

- « لقد سلخت فروة رأس امرأة هندية »

- « مرحى ! .. كلاك .. كلاك ! »

ثم أشار إلى آخر :

- « وأنت يا (تكساس) ؟ »

- « لقد أرغمت رجلاً صينيًا على غسل حصاتي

بلسانه ! »

كلاك .. كلاك ! ..

- « وأنت يا (أوهايو) ؟ »

- « حولت عمون أسيرة زنجية إلى كرات تنس ولعبت

بها ! »

هنا كان شعر (صبير) قد تصبب على جذوره ، كما

يحدث في اللام الرسوم المتحركة ، وراحت أسنانها
تصطك ..

من هؤلاء ؟ إنهم أشر وأحط سفاحين عرفتهم في
حياتها ..

إن كيف أنقذوها ؟ ولماذا ؟ وما هو هدفهم من هذه
الجمعية المريبة ؟

أسئلة كثيرة احتشدت في ذهنها ، ولم تجد لها إجابة .
ومن المؤكد أنها لن تجد ، لأن الحصان مطّ عنقه —
حيث وقف جوارها في الظلام — وأطلق صهيقاً
طويلاً .. !

1

★ ★ ★

٨ - من أنت ؟

(وقال زعيم اللصوص لرجاله) :

- « من الذى عطس يا رجال ؟ »

- « ليس أنا .. »

- « ولا أنا .. »

- « إذن .. هناك غريب بيننا ! »

★ ★ ★

حاولت جاهدة أن تخرس الحصان .. وأتاهها صوت

الزعيم من داخل قاعة الاجتماعات السوداء هذه يقول :

- « أسمعتم ؟ »

- « سمعنا ! »

- « هلموا .. القبضوا عليه وأحضروه حياً والأفضل

ميتاً ! »

- « سمعنا وأطعنا ! »

واتطلق الرجال نحو مصدر الصوت ..

وحاولت (عهير) أن تتسلق ظهر الحصان ، لكن

الارتباك جعلها تنسى ما ينبغي عمله بالضبط ..

تركزت الحصان وراحت تركض ..

تركض عالمة أنها لن تصل لنسء .. عالمة أنها
ستعثر في الظلام حتما .. عالمة أنهم حتما واجدوها ..
يا للتكرثة !.. يجب أن ...

كان ذلك حين شعرت باليد القوية الحازمة تمد قمها .
وشمت تلك الرائحة المميزة : رائحة العرق المختلط
بالتعرق وحساء الفاصوليا والبازلاء ..

إنها رائحة الجوال .. نعم .. هو كذلك !.. الآن ترى
وجهه في الضوء الخافت وترى البسمة الغامضة على
شفطيه ..

وبصوت كالهمس وإن كان أكثر انخفاضاً يقول لها :
« صمتاً !.. ودعيني أخرجك من هنا ! »

لم لا ؟.. وهكذا تترك له يدها : كي يقودها عبر
ممرات مظلمة لا أول لها ولا آخر ..

وطاويط عديدة حنقت فوق السرجوس .. وصخور
كثيرة تعثرت فيها الأقدام .. نكنها - في النهاية - ترى
النور .. وتعرف أنهما غادرا حزام الكهوف هذا إلى
العراء ..

هناك ينتظرهما حصان أبيض رشيق يتطاير الشعر
من معرفته .. وتلتصع عضلاته الجميلة المبللة بالعرق
في ضوء الشمس ..

ساعدتها الجوال على الركوب .. ووثب ليركب خلفها
وأمسك بالجام ... وانطلق بالحصان لا يلوى على شيء .
دوت طنفتا رصاص أو ثلاث ..

لكنها كانت تعرف أنهما ابتعدا مسافة كافية ..

سألته على صوت الحوافر المتزايد :

« كيف عرفت مكانى ؟ »

قال وهو يلوك اللقافة تبغ (لا تعرف من أين جاء بها
ويداء ممسكتان بالجام) :

« إنها قصة طويلة .. »

وعاد يلوك اللقافة .. كان يشير بعشقتها دوماً أن
رعاة البقر يتعاملون مع السجائر باعتبارها أشياء
مضغ ولا تدخن ..

« إذن احكيها لى .. »

« حين نفدوا فى مامن سأحكى لك كل شيء .. »

« والحصان ؟ »

« سرقة .. إن الحصان فى الغربا شبيه بجريدة

فى قطار .. يقرؤها الجميع على التوالي .. والنتيجة

هى أن أحداً لا يشعر لحظة بحرمانه منها .. وبالتأكيد

صاحب هذا الحصان المسروق يبحث الآن عن حصان

آخر يسرقه .. »

- « يا لها من مكل ! »

- « إنها عدائة توزيع من نوع خاص .. »

* * *

كان الليل قد حل .. وأخيراً يعود الجوال إلى جذوره ..
يتزع قميصه .. ويفسله في الجدول ، ثم يطلقه فوق
غصن شجرة ، ويفرش غطاء ويمس نوم على الكلا ..
ثم إنه يتشمم الجو بعض الوقت .. ويشعل ناراً في
مجموعة من جذوع الأشجار .. ويضع ثلاثة أحجار
كبيرة - اثاث كما يقول الأعراب - يضع فوقها إماء
صغيراً ..

يفتح علبة طعام محفوظ بفخجر .. ويفرغ ما فيها في
الإماء ..

وبعد ثوان تتصاعد رائحة الطعام ..

يضع بندقية (ونشستر) ذات مقبض مزخرف في
مقناول (عيبر) .. ثم يصب الطعام في علبتين من
الصفير يقدم لها واحدة وله واحدة ..

« ما هذا ؟ »

سأله وهي تتشمم علبتها في الشمنزاز .. فقال :

- « بالزلام .. »

كانت تنفجر حنقا .. الوجوه الشاحبة لا يأكلون إلا
البازلاء .. واليهود لا يأكلون إلا القديد .. أية حياة
هذه ؟ وفى أية ظروف يمكنها أن تأكل صحننا من
الملوخية إذن ؟

وعائنا سمع أفكارها : قال فى ضيق :

- « البروتوكول يحتم هذا النوع من الطعام .. »

ثم بدأ يعد القهوة فى وعاء صدئ آخر ..

سألته (عجير) وهى تتأمل تراقص اللهب :

- « كيف عثرت على ؟ »

قال دون أن ينظر إليها :

- « الأمر هو نقش معين على حوائط الحصان .. »

حصاننى الذى سرقتة صباح اليوم .. هذا النقش يعنى أن

صاحب الحصان هو من إخوان الدم .. ، إذن من المؤكد

أن الحصان قد جاء بك هاهنا .. »

- « وكيف عرفت مقر اجتماعهم ؟ »

- « هذا هين .. »

ورفع وعاء القهوة من فوق النار .. وأردف :

- « لأتلى واحد من إخوان الدم !.. »

* * *

سقطت عليه الطعام من يد (عير) ، وبحركة
لا إرادية شعرت بيدها تتسلل لتقبض على الـ (ونشستر) .
- « أنت ؟ إذن كنت تخدمنى كى ... ؟ »

أخرج من داخل خرجه قدحين معدنيين يشبهان أقداح
البيرة .. وصب القهوة فيهما .. وقال بلا مبالاة :

- « ليس الأمر كما تظنن .. كنت واحداً من إخوان
الدم .. هل تعرفين (الكونكلوكس كلان) ؟ .. تلك
الجمعية السرية العنصرية التى تدعو لإبادة الملونين
جميعاً ؟ إخوان الدم يدعون إلى الطىء ذاته .. ويقتلون
الصفراء والسود والحمراء تمييزاً ... ويؤمنون بأن هذا
هو السبيل الوحيد : ليسود العدل الكون .. »

ونقر على صدره فى فخر :

- « كنت أنا العضو (أوهايو) بين أفراد الجمعية ..
وقمت بأعمال مجيدة حقاً .. إلى أن وجدت ذات يوم
بين أفراد قبيلة (السيوكس) .. ورحت أرافقك من
بعيد .. شعرت بأننى لست شريفاً إلى هذا الحد ..
والهنود ليسوا مسيئين إلى هذه الدرجة .. فتاة رقيقة
لطيفة مثلك .. رحت أغازلها بعينى ، وكان لى فضل
إفادتك من الذهب ضد الجدول .. ثم إفتادك من قطاع
الطرق .. هل تذكرين ؟ »

وضحك في انتصار :

« هاها !... نعم .. تتكبرك لم يقدغنني لحظة ..
عرفت أنهم يدبرون شيئا وأنهم أرسلوك بالذات لستراقيي
الموقف في (هيل تاون) .. قررت أن أخلع قناعي
وألعب دور الفارس الوحيد .. وأخذتك مرة ثالثة في
الحانة .. ، لكنك حاولت الفرار .. وأنا لا أعرف ممثل
(هيل تاون) بين « أخوان الدم » ، لأننا لا نرى وجوه
بعضنا أبدا .. لكنني تأكدت - حين رأيت آثار الحوافر -
من أنه هو المقاتل الذي كان يقطنني في لعبة (البوكر) ..
وعرفت أنك الآن في كهف الاجتماعات ..

ولهذا لحقت بك لأخذك للمرة الرابعة .. »

ظلت ترفقه شاردة .. ثم سألته بعد دقائق :

« ولـ .. لماذا يفعلون ذلك ؟ لماذا يعذبون

الملونين ؟ »

ناولها قدح قهوة يخرج البخار الساخن منه .. وقال :

« إن هذه البلاد قامت على أكتاف مجموعة من

المقاتلين .. ومبدأ الحياة اليومي هنا هو (عش ودع

الآخرين يموتون) .. إما أنا وإما هم .. ، إن هذه هي

أرض الهند .. ونحن نريدها منهم .. لهذا لا يوجد حل

وسط .. نحن أوهم .. ، الغالبية تؤمن بالخداخ كوسيلة

للحصول على الأرض .. أما بعض المتطرفين فيؤمنون
بالدم .. ، إن إخوان الدم يهربون عن النمط النفسى
الأمريكى بشكل أكثر صراحة وأكثر فجاجة .. لكنها
الحقيقة .. «

« وما هو مكانك الآن ؟ »

« أوه .. لقد تخلت عن موقعى ودورى حين أتت
حياة فتاة ملونة .. ولم أعد أطيع الأوامر التى تصلنا
بالحمام الزاجل .. لهذا أنا المرشح رقم واحد للقتل
الآن .. وأراهن على أن اجتماع اليوم كان مخصصا لى ...
الآن يوجد ثلاثة ماريشالات للولايات المتحدة يبحثون
على وايتا عشر قاتلاً .. إن شعبيتى تزداد حقا .. »

وأخرج من جيبه (هارمونيك) صغيرة راح يصفر
عليها .. ثم - بصوت أجش خفيض - راح يفتى :

« أنا مطلوب حيا أو ميتا .. »

لهذا سارحل يا صغيرتى ..

ولكن من سيبحث من أجلى ؟ من سيصلنى على
روحي ؟

« حين أتلى من جبل المشقة !؟ » (٩)

(*) أغنية حقيقية من أغاني غرب ..

ثم ازداد صوته رخامة :

« أنا راغى بقر مسكين وحيد .. »

« وموطنى بعيد .. بعيد .. »

ثم بدا عليه الارتباك .. وغمغم :

- « معذرة .. هذا المقطع ليس من تأليفى .. إنه

خاص بالزميل (لاسى لوك) .. وقد اختلط على

الأمر ! »

- « لا عليك .. ولكن قل لى : هل ارتكبت مذاهب

كثيرة ؟ »

- « آلاف منها ! » - هتف فى حماس - « .. لقد

سرت على خطى أبى العزيز .. وفى سن السابعة من

عمرى رأيت يقتحم كوخ صياد قراء أبيض ويفجر رأسه

بالرصاصة ، لأنه تزوج هندية وأنجب منها ! »

نصبت (عبير) .. وسألته :

- « هل .. هل أنجبنا بنتا ؟ »

- « أظن هذا .. كانت من نفس سننى ! »

- « وتذكر اسم الهندية ؟ »

- « أظن هذا أيضا .. لأن الصياد صاح حين رأى

أبى : (لقد نالوا منا يا بصفة الجاموس !) .. تصورى

هذا ؟ بصفة الجاموس ؟ .. »

« إن لديكم - معشر الهنود - أسماء لا تصدق ! .. »
في اللحظة الثانية وجد نفسه يحدق في فوهة
البنديفة ..

وسمع (عهير) تقول في صهوة :
- « إن أباك هو قاتل أبي .. ومن الواضح أننا
سنقابل الآن ! »

★ ★ ★



في اللحظة التالية وجد نفسه يحدق في لوحة البندقيّة ..

٩ - في وقت الضفائين ..

- « أأنت خالفا ؟ »

- « نأب ا »

- « ألاحظ أنك عدت لك (نأب) و الـ (نأب) وكنت قد نسيتهما فترة لا بأس بها .. »

- « إنها طريقة لإظهار اللامبالاة .. نوع من لعب

نور (البارد) .. ولا حاجة بي لذلك مع طفلة مثلك .. »

- « هذه الطفلة ستفجر رأسك حتما .. »

- « سيكون قراراً خاطئاً »

قالها وجرع جرعة كبيرة من القهوة :

- « إن حامية الجنرال (سكوت) متجهة الآن

لتأديب (السيوكس) .. وعليك أن تصلى هناك قبل

الحامية لتتذري قومك .. من دون عوني لك يصير هذا

مستحيلاً .. »

وخلع قميصه وحك خصلات شعره البني الذي لم يعرف

الماء منذ قرون !

- « ثم إنك لن تقتليني لأنني أروق لك .. ! »

- « مغرور ! »

- « هذه هي الحقيقة .. فتمطى لا يقاوم .. السماء
يحشون من ولدوا خاسرين .. أولئك المشاغبين الذين
لا يمكن ترويضهم .. ، وأنا قد أنقذت حياتك مرارا ..
ولا أظن أنك تقتليني من أجل ما قارفه أبي .. وهكذا
تربى صعوبة الموقف ، فارس وسيم يعرف الطريق إلى
مصر (السيوتس) أنقذك من الموت أربع مرات ..
فهل يموت ؟ »

- « نأب ! »

قالتا وهي تخفض فوهة الهندقية في تردد ..
الواقع أنها لم تكن تتوى شيئا .. هو فهم هذا دون
جهد .. خاصة أنها لم تلق هذا الذي يقولون : إنه
أبوها قط .. فكيف تتفهم له ؟ كل ما هنالك أنها وجدت
من واجبها أن تفعل شيئا ما ..

قالت في سأم :

- « إني لا »

- « ششش »

قاطعها وهو يضع سجايته أمام شفطيه .. ورأت ممسسه
في يديه .. لا تدري متى ولا كيف أخرجهما من نطاقه ..
وداح يرمى الأشجار العظيمة في تحفز ..
بعد ثانية تحركت غصون الأشجار ، وبرز وجه

مغطى بالشعر الأبيض حتى إن (عبير) حسبته أنها
عجوزاً ..

ثم أدركت أنه جندي .. جندي نامى اللحية .. يرتدى
بذلة رمادية اللون وعلى رأسه (كاسكيت) .. وقد بدا
في حال مزرية ..

هتف الجندي وهو يرفع يديه :

« لا تطلق النار يا راعي البقر .. »

وترجع على الأرض .. وراح يزحف نحو النار بهبطه .
أعاد الجوال مسدسيه إلى قرايبهما .. وسأل وهو
يعود للجلوس :

« منذ متى ؟ »

« ثلاثة .. »

« آخرون ؟ »

« ماتوا .. »

أخرج الجوال رغيفاً من الخبز الجاف .. ونهض إلى
الجواد فتناول من سرجه زجاجة صغيرة .. قذفهما
نحو الجندي ..

فراح هذا يلتهم الخبز ويجرع من الزجاجة ككلب
جائع ..

لم تفهم هي شيئا .. لكنها أدركت أن الجوال يفهم كل شيء كعادة رعاة البقر الوحيدين .. لم يكن هناك كثير من الكلام لأنه لا داعي له .. إنها لغة قوم يفهم بعضهم البعض بوضوح ..

سالت عليه تسأله هامسة عما هناك .. فقال لها بلا مبالاة :

- « الأمر واضح .. هذا جندي من جيش الجنوب فر من فرقته مع آخرين منذ ثلاثة أيام .. مات الآخرون على يد الجنود الاتحاديين ونجا هو .. »
- « تعنى الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب ؟ »

- « طبعا .. ليس التزامن دقيقا .. لكنك في (فانتازيا) حيث يتواجد كل شيء في وقت واحد .. »
- « وما هذه اللغة المختصرة ؟ »
- « هي لغة أناس سئموا الكلام .. »

كان الجندي قد فرغ من الأكل .. فتنف له الجوال لفافة تبغ أشعلها هذا من النار .. وسأله الجوال :

- « كيف ؟ »

- « الدخان .. إن رائحته قوية .. »
- « غرسان ؟ »

- « لا .. (شين) .. أربعة أميال .. »

- « إنن نطفن .. »

وتناول دلو الماء وسكب به على النار فساد الظلام إلا
من رائحة الدخان المحتضر .. كان الظلام دامساً ثم
عادت (عبر) ترى النجوم تزداد وضوحاً وتألّقاً ..
وعادت تتبين قسّمات الوجوه ..

قال الجندي وهو يهرش لحيته :

- « نرحل فجراً .. هل أبدأ أنا الحراسة ؟ »

- « باب ! »

- « إنن أنا بعدك .. »

- « باب ! »

وتعمد الجندي على الكلا وبعد ثوان تعالّى صوت
خطوطه ..

أشار الجوّال إلى كمين القوم لتدخل (عبر) فيه ،
وأشعل الحافّة تبغ .. وجلس ووضع الي (ونشستر)
على ركبتيه ..

قالت له وهي تلهث شاعرة بالبرد :

- « هل حقاً ستنام وهو متيقظ ؟ أنا لا أثق به »

- « أنا كذلك .. لهذا سأتولى الحراسة طيلة الليل

وان أوقفه ! »

٤ - أربعة من (إخوان الدم) يقفون شاهدين
مسدساتهم في وجه الجوال .

فلت رائدة ترقب الموقف ..

كان أحد الرجال الملتزمين بضحك .. ويتكلم بصوت
مألوف تذكرت صبر أنها سمعته في الكهف :

- « والآن يا (أوهايو) ينتهي سفرك الأبدى ! »

تراجع الجوال خطوة للوراء .. وفي ضيق تسأل :

- « كيف وجدتمونا ؟ »

- « تنسى يوماً أن حوالى خيولنا مميزة .. كان من

المسهل أن تجد آثار الحذوات خارج الكهف ، وكانت

تقود إلى هنا .. ثم شمعنا رائحة الدخان .. أنت الفارس

الوحيد في العالم الذي ينسى اتجاه الرياح حين يتناول

عشاءه .. »

قال الجوال وهو يشعل لفافة تبغ غير عابئ بإشارة

توترهم :

- « إذن فلننه هذه اللعبة سريعاً .. »

هتف أحدهم في زميله :

- « اتل قرار الإعدام .. »

أخرج هذا الأخير قطعة من الورق .. وفتحها وراح

يقرأ بصوت مسموع :

- « إنه في ٨ مارس عام ١٧٦٨ تقرر إعدام العضو
(أوهايو) لخيانته العظمى ، وخروجه من جمعية
(إخوان الدم) بعد ما ألقم قسم الدم .. وليكن في اسمه
عبرة لكل خائن .. »

صاح الجوال مقاطعاً :

- « لحظة يا شباب .. كيف عرفتم أنه أنا ؟ .. إن
أحدنا لم ير وجهي سوى (الأخ الأكبر) .. »
- « كلنا نعرف سماتك منه .. ونعرف عادتك .. »
ثم ارتفعت المسدسات نحو الجوال .. وأردف الرجل :
- « هلا تلوذ صلاتك الأخيرة يا (أوهايو) ؟ »
في اللحظة التالية دوت أربع طلقات ارتج لها سكون
الغابة ..

وحلقت الطيور في الهواء محنقة لإزعاجها مبكراً ..
وعلى الكلا تكومت أربع جثث منشفة والدم يتز من
أجسادها ..

رفع الجوال رأسه مدهوشاً ليرى ماذا حدث ..
رأى الجندي يبرز من وراء الأشجار حاملاً مسدسه ..
مسدساً في كل يد .. والدخان ينبعث من الفوهاتين ..

قال الجندي وهو يثأف بالمسدسين نحو الجوال :

« هلك ! .. معقرة .. »

تسائل الجوال وهو يعيد المسدسين إلى نطاقه :

« لماذا .. »

« لم أرغب فحسب .. »

هنا بدأت (عجير) تلهم .. لابد أن النوم غلب

الجوال ، وحاول الجندي سرقة المسدسين والحصان

والفرار .. لكنه سمع هذه المحادثة ولم يطاوعه قلبه

على ترك منقذه في موقف كهذا ..

لذا ألغى مسدسيه في صدر المعتدين .. وعاد

ليصارع الجوال بأسفه لما حدث ..

قال الجندي وهو يجذب الحصان إلى مقربة :

« (الشيبين) .. سمعوا حتماً .. »

« إذن ترحل الآن .. »

« خيولهم ؟ »

وأشار إلى الجشت الأربع .. فهز الجوال رأسه موافقاً ..

هذه المرة حصل كل منهم على حصان .. وتركوا

حصانين في الغاية عالعين أن (الشيبين) سيجدونهما

حالاً ..

دوى صوت صراخ الهنود الهجومى .. فصاح
الجوال وهو يركل خاضرة حصانه :
« إنهم لا يضيعون وقتنا .. فلتهرب ! »
وانطلق الفرسان الثلاثة يشقون طريقهم وسط
الأشجار .. بينما سهام الهنود تتطاير حولهم فى كل
صوب ..



١٠ - الحخدوعون ..

النهار البكر يتنفس في كسل فوق الرُّبَا ..
وثلاثة فرسان يقطعون السهول على ظهور خيولهم
قاصدين معسكر (السيوكس) ، بعدما فروا من
(الشين) ..

ولاح المعسكر من بعيد .. ودوت صرخات الكشافة
تعلن للقوم أن ثلاثة فرسان يدنون من المعسكر ..
ورأت (عبير) عشرة خيول تدنو منهم يمتطيها
(ذو الدمامل) وآخرون معه .. كانوا مدججين بالسلاح
متأهبين للقتل في أية لحظة ..

لما إن رآها (ذو الدمامل) حتى رفع ذراعه الأيمن
بالرمح ؛ ليوقف الرجال المتحمسين عن يمينه ..

صاحت (عبير) بصوت متهدج :

« (صخرة الماء) تحيي أباها (ذو الدمامل) »

قال بصوت مرتاب :

« أرى وجهين شاحبين إلى جوار (صخرة الماء) »

« هما صديقان .. »

ثم أردفت وهي تخرزع شعرها الأشقر المستعار :

- « إن الحامية قادمة لتهاجم (السيوكس) .. »
- « يا لفضية (أوجاما) ! .. فليتخذ المقاتلون أهبتهم
إذن .. ولنقم بإبعاد النساء والأطفال .. »
هنا رفع الجوال يده طائبا الكلمة .. ونظر نحو الفتاة
طالبا منها أن تعارفه في الترجمة :
- « فليسمح لي المحارب بالكلام .. »
قالت (عبير) بلغة (السيوكس) :
- « آجو .. وا .. تشي .. سوها »
- « إن ما يحدث هنا هو نتيجة لعبة فذرة يمارسها
بعض البيض .. هؤلاء البيض بهمهم دوما أن تنشب
الحروب بين الهندود والجنود .. »
- « أما .. جي .. شاكنا »
نظر الجوال إلى (عبير) في حيرة .. وبثك سألها :
- « هل هذه ترجمة كل ما قلت الآن ؟ »
- « إن لغة (السيوكس) بليغة حقاً .. »
ثم إن الجوال أردف بصوت عال :
- « لا تقاتلوا البيض .. كل ما أرجوه هو أن يمتدحوا
بمسيركم عدة أميال .. إن أي عدام مع الحامية
ستكون نتائجها وبيلة »
- « يونجا .. آيا .. هاه .. ! »

صاح (ذو الدمامل) فى حلق وهو يلوح برمحه فى
الهواء :

« (السيوكس) لا يخافون الوجود الشاحبة .. إنهم
شجعان مثل النمر الجريحة .. ولا يبالون بالموت .. »
ترجمت (عبير) ما قاله فى تعاسة .. فرد الجوال :
« أنا أعرف جرأ (السيوكس) .. لكن البيض
يملكون بذائق ومدافع .. والمدفع يساوى عشرة رجال
برماحهم .. »

الخلاصة أن هذه المناقشة طالت بعض الوقت ..
وفى النهاية اقتنع (ذو الدمامل) بأن يرحل مع
عشيرته إلى واد بعيد .. على أن يترك لـ (عبير)
و (الجوال) مهمة إقناع الوجود الشاحبة بالسلم ..
ولم تجرؤ (عبير) على إخباره بأن ما حدث كان
نتيجة حتمية لحماقته ، وأن الجنرال (سكوت) -
الدموى - لم يخدع لحظة ، وحسب الاعتداء من طرف
(السيوكس) ..

والآن ينطلق الجوال ورفيقاه إلى الشرق باحثين عن
حامية الجنرال ..

★ ★ ★

من بعيد تبدو أعلام الحامية وعرباتها ..

قال الجندي وهو يجذب لجام جواده :

« إلى هنا تنتهي رحلتى يا راعي البقر .. أنا لمن

أدع هؤلاء (اليانكى) (*) كى يضعوا يدهم على .. »

« باب ! »

وتبادل الرجلان تحية ودوداً مليئة بالمحبة ..

تتلخص فى أن كلا منهما ضرب بقبضته كتف الآخر ..

ثم أدار الجندي جواده فى الاتجاه العكسى وراح ينهب

الأرض نهبا ..

قالت (عبير) :

« يا له من فراق مؤثر ! إنك لرجل مرفف

الحسن يا جوال .. »

قال وهو يلوك لفافة التبغ :

« لا حيلة لى فى رقة مشاعرى .. »

ثم جذب لجام الجواد وانطلق - وهى وراءه -

قاصدين مصكر الحامية ، ومن اللحظة الأولى أدركت

(عبير) أن شيئاً ليس على ما يرام .. ليس من المعتاد

أن يحتشد الناس بهذه الطريقة حول شيء ما .. وليس

(*) فرسان الشمال ..

من المعتاد أن يكون هذا الشيء ممدداً بلا حراك .. وأن
يبرز سهم هندي ذو ريش من بين لوحى كتفيه ..

كان الموقف كالتالى : أحد الجنود قد لقي حقه بسهم
هندي فى ظهره .. وكان ممدداً على الأرض فى غباء ،
على حين وقف الجنود حوله يتبادلون السباب
والعبارات القسبية ..

وكان الجنرال جاثياً على ركبة واحدة جوار الجثة
يتفحص السهم بأنامله ، ويدخن السيجار مفكراً ..
وهنا رأى القوم (عبير) والجوال .. فصاح صائح
منهم :

« إنها هندية .. هندية من (السيوكس) ! »
فى اللحظة التالية رأت (عبير) عشرات - لا بل
مئات - البناتى تصوب نحوها .. وسمعت الصيحة
المعتادة :

« اقتلوهما يا شباب ! .. إن الهندي الطيب هو الذى
مات ! »

هنا الجنرال راقباً يده اليمنى صائحاً :
« توقفوا يا أبنائى ! .. يكفى القتل والدماء ! »
ثم هتف وهو يلوذ سيجاره :

« انظروا قواكم لأبج هؤلاء المتوحشين في
معسكرهم .. ! »

« إن الجنرال إيمان حقاً .. »

في هذه الأوتة كان الجوال قد ترجل بدوره ، وراح
يتفحص الجثة في فضول .. ثم إنه أعاد تثبيت القبة
على رأسه .. وقال للجنرال وهو يشير للسهم :

« هذا السهم لم يطلقه هندي يا جنرال .. بل أطلقه
رجل أبيض .. رجل يهمه أن يستفز الجيش .. »

« ماذا تعني يا بني .. »

« أعني أن الر الوتر غير ظاهر على مؤخرة
السهم .. لقد أطلق هذا من قاذفة سهام وليس من قوس ..

وأراهن على إن « إخوان الدم » هم من فعل ذلك .. »
« إخوان ماذا .. »

« « إخوان الدم » .. تنظيم من البيض يسعى لإبادة
للهنود .. »

« يبدو لي تنظيماً خيراً ! »

« ربما .. لكن وفقيقتك تحتم عليك التقاهر بالحياد ..
توجد معاهدة بينك وبين (السيوكس) عليك أن

تحترمها ما لم يثبت العكس .. »

« لقد ثبت العكس بالفعل ! »

« لم يثبت شيء .. سهم هندي مزيف .. وامرأة
حقيقة ترغم أن (الشيين) هاجموا عربتها .. ولقد
فرت هذه المرأة من فندقها صباح اليوم .. »
- « حقا فرت ؟ »

- « ياب ! »

وقف الجنرال عاجزا عن اتخاذ قرار صائب ..
في اللحظة التالية تعالى غبار الخيول في الأفق ..
وهتف هاتف إن مجموعة من الفرسان البيض قادمة ..
واستطاع الجنرال أن يرى ركب الفرسان .. كانوا
مجموعة من رجال (هيل تاون) يتقدمهم الشريف
ومساعداه ، والمقامر المحترف .. ويلطخس الحانة ..
وكان بعض الرجال مسلحين بالبنوس وبعضهم بالحبال .
وعلى مسافة أمتار توقف الركب .. وتقدم الشريف
بضع خطوات إلى الأمام بجواده .. وهتف في الجنرال :
- « جننا يا جنرال لتعاونكم في تأديب هؤلاء
المتوحشين .. »

وقال آخر وهو يجذب لجام جواده :

- « إن الجيوش والقوات المدنية مرغسون على
التكاتف .. فكلنا نعمل من أجل (أمريكا) .. ولا تهم
اليه التي تذبح أطفال (الميوكس) طالما هي يد
أمريكية مباركة ! »

- « مرحى ! »

- « بالرب تؤمن .. »

تقدم الجوال بضع خطوات من جواد الشريف ..
وتأمن الأرض .. ثم رفع عينيه لتلتقيا بعيني الرجل ..
وفي شيء من المفارقة تسأل :

- « لم أرك متحمسا إلى هذا الحد من قبل يا شريف »

- « لأنني أهوى العدل يا راعي البقر .. »

اتحس الجوال على ركبته .. وتفحص آثار أقدام
الجواد على الرمال .. ثم صاح في الشريف :

- « من أين تجيء بهذه الحدوات الجميلة لجوادك ؟ »

- « عم تتسأل بالضبط ؟ »

- « إن هذه النقوش على الحدوات تذكرني بشيء ما .. »

ألا ترى هذا معنى ؟ »

هنا كانت (عبير) قد فهمت ..

كان هناك حصان يحمل هذه الحدوات في (هيل
تاون) .. وقد قرأت هي به .. معنى وجود حصان آخر
أن هناك اثنين من (إخوان الدم) في البلدة .. هذا
مستحيل إلا لو كان الشريف هو ..

- « زعيم جماعة (إخوان الدم) ! »

قالها الجوال وهو يشير إلى النقوش على الرمال ..

قال الشريف وهو يجفف العرق على وجهه ، ويرقع
الصروال الذي تساقط عن كرشه العملاق :

- « إخوان ماذا ؟ .. هم تهرف يا راعي البقر ؟ »

قال الجوال بينما الصمت الرهيب يغمر الجميع :

- « أنت تعرف أنني محق .. كنت تتظاهر بالكمال
والقراخي .. ومعا كنت تغير نبرات صوتك فلم أتمكن
.. ولم أتمكن عضو (هيل ثاون) نفسه - أن يتعرفك ..
لكنك ظلمت متشبها بالبروتوكول الأخرى الذي يحتم أن
تضع هذه الحدود على حوار حصانك .. لكنك تعرفني
جيذا .. كنت ترائي طيلة الوقت .. وأنت من جففتني
تلك الليلة في (أوهايو) .. سيكون سهلا علي أن
أكشف جرائمك للعدالة .. والمشقة هي العلاج الفاجع
لكل الأمراض العنصرية .. »

- « أنت غدوت شراراً يا راعي البقر .. »

قالها الشريف وهو يداعب لجأه جواده .. ويردف :

- « لقد كانت شيمتك الصمت .. وهذه هي مشكلة
أمثالك .. يظنون بصحة طيبة طالما جافظوا على
صمتهم .. لكنهم ما إن يتخلوا عن هذا الصمت حتى
تحين نهايتهم المريعة ! »

اللجاء ينطلق كالرصاصة في وجه الجوال الذي كان
لا يزال راكعا على الأرض قرب حوافر الحصان ..
وصرخ هذا وهوى فوق الرمال .. لابد أن الأسير كان
مريعا .. ولكن الجواد لم ينو تركه لحال سبيله .. راح
يعايشه بخوافره ويخلطه بينها نون رحمة أو نوبة
عنف ..

هتف الجنرال وقد آخفته ما يحدث :

« توقف أيها الشريف حتى نفهم ما يحدث ! »

لكن الشريف لم ينتظر .. سرعان ما أدار مقود
جواده واتطلق لا يلوي على شيء مبتعدا عن حشد
الجنود .. وحاول أحد الجنود أن يوقعه بجنب اللجاء ..
لكنه تلقى ركلة في وجهه أطارت الأسنان الثلاث الباقية
في لمة ..

« هاجموووووا ! »

كذا صاح الجنرال ملوحًا بسيفه .. وعلى الفور اتخذ
الرجال أوضاع التصويب نحو الفارس المنطلق بجواده
ليختفى في الأفق ..

« لا !!! دعوه !! إنه لي .. ! »

صاح الجوال بوجه غارق في الدماء والرمال ..
وثبض على ركبتيه .. وهرع إلى جواده وامتنطاع ..



صاح الجوكان بوجه غارق في الدماء والرمال ..
ونفض على ركبتيه ... وخرج إلى جواده وامبتطاء ..

وجذب النجم .. فلم تر (عير) مفرأ من امتطاء
جوارها للحاق به .. فهي لا تريد أن يهلك هذا المعتوه ..
يجب أن تكون جواره لتمنع هذا ..
صاح الجنرال في رجاله :

« لا تطلقوا النار يا رجال .. دعوا هؤلاء
المعتوهين يسوون مشاكلهم مع بعضهم .. »
ثم إذ رأى بعضهم مازال مصراً على التصويب :
« كفى ! .. سأحوّل أول من يعصى أمري إلى
محاكمة عسكرية ! »

لخبط الرجال بنادقهم أسفين ..

بين الأشجار الكثيفة توقف الشريف ..
من جعبته أخرج شيئاً ما .. هذا الشيء هو عيافة
ولثام .. وضعهما على رأسه ففدا من إخوان الدم ..
سيكون الانتقام رهيباً .. ولن يقتصر على الحمر
والصفر والسمر ، بل سيضمن البيض الذين يعاونون
هؤلاء .. أولئك الذين لا يفهمون فلسفة هذا المجتمع
الخالصة ..

ولكن يجب أولاً أن يجد مكاناً آخر للاجتماعات ، ثم
يرسل الحمام الزاجل إلى من بقى من رجاله .. وعندئذ

يبدأ المرح .. سيكون عليه أيضا أن يجد أعضاء
 جديدين له (هيل ناون) وسواها من المدن ..
 أما عن أعقد ما في الأمر فهو البحث عن شخصية
 جديدة في بلد جديد .. ربما صار صاحب حانة أو
 مارشالا جاتلا .. من يدري ؟ للأسف لا توجد مهن
 كثيرة في الغرب للاختيار فيما بينها ..
 وفجأة لم يدرك نفسه إلا وهو يظفر من فوق صهوة
 الحصان ؛ ليتمرغ أرضا ، وتهشم كل عظامه ..
 أدرك أن هناك حبلا يحيط بجسده ، وأن هناك من
 رماه بأنشوطته من مكان ما ..
 بالفعل .. يرى قدمين أثويتين وقدمين تكريتيتين
 ترتديان حذاء الركوب ذا المهمالين ..
 قال وهو يهتد في جلسته ويذبح لشامه عن وجهه :
 - « أنت بارع يا جوال .. »
 - « ياب ! »
 قالتها الجوال ودس لقاظة تبيغ مشتعلة في فم غريمه .
 قال الشريف وهو يلوك اللقاظة :
 - « والآن .. قلته هذه المسرحية .. »
 صاحبت (عبير) في نهقة :
 - « نعم .. نعم .. أطلق النار على رأسه يا جوال »

ثم شعرت بالخجل من دمويتها ..
قال الجوال وهو يرفع الأنشطة عن خصمه ، ويلف
الحبل حول ساعده :

- « أريد تسوية عادلة .. رجلاً لرجل .. الآن ! »
لاحظت (عبير) أن وجه الجوال غال من الجروح ..
كيف زال أثر النجام من عليه ؟
هنا - على الفور - ظهرت الندبة على الخد ..
وأدركت (عبير) أن (دى - جى - ٢) قد سها قليلاً
ثم تدارك السهو !

الآن يفك الزعيم بقايا الحبل عن صدره وينهض
ببطء :

- « أنت تريد تسوية يا جوال .. هذا يروق لى .. ! »

★ ★ ★

الآن يسود الصمت الغابة ..
حتى الطيور كفت عن تبادل السباب .. والأشجار
كفت عن الاهتزاز .. والهوام كف عن الصفير بين
الأخضان ..

إنها أروع اللحظات فى قصص الغرب طراً ..
المواجهة بين فارسين ..

مساحة خالية من الأشجار يقف الغارسان فيها
متواجهين ، وبينهما مسافة عشرة أمتار تقريبا ..
يد كل منهما تحوم جوار مسدسه الموضوع في
نطاقه .. وعيناه لا تفارقان وجه غريمه ..
قالت (صبير) ، في هلع وهى تتوارى خلف جذع
شجرة :

« كنت أظنكما ستمشيان بضع خطوات وتظهر كل
منكما للآخر ثم تستكبران وتظنقان .. »
قال الجوال وهو يرمى خصمه فى ثبات :
« ناب .. !! هذه هى الطريقة الإنجليزية .. طريقة
السادة .. أما نحن - الرعاع - فنقتاتل هكذا معتمدين
على سرعة الإطلاق ودقة التصويب .. »
ثم تركها وراح يسير فى تودة تجاه خصمه ..

★ ★ ★

لاشئ سوى صوت الكعبين فوق الأرض ..
صوت رنين المهارين ..
صوت الأنفاس الثقيلة المتوجسة ..
صوت الصمت ..
وهنا رجلان يوشك أحدهما - ولا أفرى من - على
إفناء الآخر بعد ثوان ..

التنصر للأسرع والأدق تصويباً والأقوى أعصاباً ..
لا شيء سوى الـ

★ ★ ★

- « حان وقت العودة يا فتاة .. »
استدارت لترى من فوجدت (المرشد) والفا
يضغط نهاية قلعه كعادته وابتسامة مزعجة على
شفتيه .

في احتجاج صرخت :

- « لكننا لم نقتله بعد .. ! »

- « بالعكس .. لقد عدل الجيش عن الهجوم ، وانتهى
(إخوان الدم) .. وساد السلام .. إن نتيجة هذه
المبارزة تحصيل حاصل .. »

لم يدر متى ولا كيف هوت النكمة على وجهه .. ثم
غاصت الركبة في أسفل بطنه ، فإطلق آه وتهاوى
راكعاً على ركبتيه :

- « أوالله !.. أنت صرت شرسة يا فتاة .. إن تأثير
هذه القصص العنيفة على أخلاقك ليثير .. أوووه .. !
قلقى ! »

- « كل ما أعرفه أنني ن أتركك تبعدني عن هنا -
كما في كل مرة - دون أن أعرف ما حدث للجوال حقاً »

وهنا سمعت صوت الطلقة ..

★ ★ ★

رأت الجوال يسقط أرضاً والدم يملأ أعلى نراعه ..
صرخت فى هلع .. لم تصدق ما يحدث .. هزعت
إليه ووسدت رأسه على صدرها .. وبوجه مغمض بالمقت
نظرت إلى الزعيم :

- « أنت أيها الـ »

كان واقفاً يرمقها بلا تعبير .. المسدس فى يده
ينبعث الدخان من فوهته .. و ...
ثم سقط على وجهه كحجر ..

عندئذ تحرك الجوال .. وفهمت (عبير) .. لقد
انطلقت الرصاصتان فى ثانية واحدة .. وكانت رصاصـة
الجوال هى الفاتكة ..

همست فى أذنه :

- « أنت جريح ! »

قال لاهثاً :

- « هذه هى تقاليد القصة .. كل ما هنالك هو أننى
سامزق قيسص الوغد ، وأصنع جبيرة .. فى قصص
(الوسترن) لا يصير الرصاص مشكلة .. فقط فى
المساء أحاول انتزاع الرصاصـة بخنجر محمى .. و ..

من هذا ؟ »

وأشار نحو (المرشد) الذى وقف على بعد خطوات
ينتظر حتى تنتهى (عبير) من الاطمئنان ..
ولم ينتظر الجوال الإجابة .. بل أردف يجيب عن
سؤاله :

- « أنت (المرشد) أليس كذلك ؟ »

- « بلى .. فى خدمتك .. »

نهض الجوال لاهثا .. وقال وهو يمسك ثراعه :

- « أبلغ الإدارة فى (فانتازيا) أثنى لم أتكاض
راتبى منذ شهرين .. كما أثنى طلبت مسدسين جديدين
فلم يعأ بهى أحد .. »

- « إنه التضخم كما تعلم .. »

- « لطيف أن أعرفك يا زميل .. »

★ ★ ★

كان الغروب يلقي بعباعته الأرجوانية فوق الوجود ؛
حين ودع الجوال (عبير) و (المرشد) وابتعد بجواده
نحو الأفق الغربى .. فهو جوال .. وحياته هى أن يجول
حتى يموت ..
دمعة اتحدت على خد (عبير) وهى تسمعه يترنم
من بعيد :

« أنا مطلوب حيًا أو ميتًا .. »
 لهذا سأرحل يا صغيرتي ..
 ولكن من سيبنى من أجلى ؟
 من سيصلى على روحى ؟
 حين أتدلى من حبل المشنقة

★ ★ ★

خاتمة

فى قصتنا القادمة نذهب مع (عهير) إلى أرض
 الفراعنة ، ونركب عربة (رمسيس) الحربية لنواجه
 (الحيثيين) فى (قادش) ..
 سيكون هناك الكثير من الغبار والخيول الثائرة
 والدماء ..
 لكن هناك أيضًا متسعًا للخيال .. متسعًا لـ (فانتازيا) .

[تمت بحمد الله]

★ ★ ★

رقم الإيداع : ٥٢٦٦

الرقم الدولى : ٥ - ٢٦٥ - ٢٦٠ - ٩٧٧

ذات مرة في الغرب



د. أحمد خالد توفيق

حين تأخذنا (عبير) إلى الغرب ؛
نعرف أننا سنواجه كل شيء .. الهنود
الحمر الثائرين .. والوعاظ المزيفين ..
والدببة الشهياء الغاضبة ..
والجمعيات السرية التي شعارها
الدم .. والأوغاد المتحرشين بكل قادم
في الحانات ... كل هذا وأكثر نلقاه في
مرة .. ذات مرة في الغرب

الكتاب في ١٥٠
رسالة منه بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

الطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٥٠٠٠٠٠ - ٥٥٠٠٠٠٠
فاكس : ٥٥٠٠٠٠٠